

حرب لبنان.. تفكك الدولة وتصدع المجتمع « لعبد الرؤوف سنو» التشكيلات الأهلية وانسداد شرايين الصيغة

زهير هوارى

عبر مجلدين تفوق عدد صفحاتهما الالف وثمانماية صفحة، ومن خلال مئات المصادر التي تتراوح بين الكتب والتقارير والصحف والبيانات والوثائق. اضافة الى المقابلات الشخصية، "حاك" الاستاذ في التاريخ الحديث عبد الرؤوف سنو كتابه "حرب لبنان ١٩٧٥ - ١٩٩٠ تفكك الدولة وتصدع المجتمع" الصادر حديثا عن الدار العربية للعلوم - ناشرون .

وصدور مثلا هذا العمل بعد جهد مضمّن امتد الى عشر سنوات، يطرح على اللبنانيين تأريخ حربهم ونزاعاتهم المستمرة، خصوصا وان الوصول الى اتفاق الطائف وما ادى اليه من مضاعفات، لم يكن السطر الأخير في "سفر" صراعاتهم المستمرة. بل ان تجدد هذا الوضع في السنوات الاولى من القرن الواحد والعشرين، لا سيما في اعقاب صدور قرار مجلس الامن الدولي ١٥٥٩ واغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري وخروج القوات السورية من لبنان بعد اقل من ثلاثة عقود على "سورنة" اتفاق الطائف.. وما تلا ذلك من انفجار الصيغة التي تمت صياغتها في غضون تلك الحقبة.. وما شهدته البلاد اولا من اغتيالات طالت سياسيين واعلاميين في فريق ١٤ آذار، وتطورها الى صدمات ارتدت مؤخرا الطابع المذهبي.. كل هذا وسواه، فضلا عن الاحتمالات المفتوحة، والتي لم توقف اندفاعاتها اتفاقية الدوحة ..يطرح على اللبنانيين مسائل بنوية تتعلق باجتماعهم السياسي والبشري وبنائهم الاقتصادي، فضلا عن المطروح تاريخيا حول هويتهم وخياراتهم وسط منطقة تتجه حثيثا نحو مزيد من التفكك، خصوصا وسط الرياح الهوج التي تهب على بلادهم، وتخلف في كل ديار تصل اليها دمارا مجتمعا عاتيا يعبر عن نفسه بالحروب الداخلية المنفلتة من كل عقال سياسي، وما يصاحب ذلك من دمار ومجازر وهدر للطاقات البشرية والمادية، فضلا عن التحديات التي تطلقها امام كل منهم جماعات وافراد في تحديث مجتمعاتهم والخروج من هذه الدوامة المزلزلة بعيدا عن الشعارات الرائجة في الكثير من الادبيات السياسية وحمى العصبية الجامحة، والتي تدفع بالمجموعات الى الانخراط في صفوفها وبالتالي السقوط المتماذي في قاع لا نهاية له .

حياكة متأنية

لا يمكن اختزال ما قام به سنو في مجلديه الأول والثاني بعناوين سريعة، وعندما استعملت كلمة "حاك" في هذا التقديم، كنت اقصد تماما التنويه بهذا الصبر، الذي قام شخص بعمل مؤسسي يستلزم عشرات الباحثين والمساعدین توصلا الى تقديم الصورة بتفاصيلها الدقيقة. والحقيقة ان ما ساعد سنو على انجازه هو تمكنه في المقاربة المنهجية لموضوعه الواسع، دون ان يحصر نفسه في

مدرسة واحدة من مدارس علم التاريخ، لذلك يمكن ان يلحظ اي مدقق بالعمل تتابع المقاربات: من التاريخية الى الاجتماعية الى الاقتصادية الى التحليلية الى الاحصائية الى الاستقرائية للوثائق والنصوص وصولاً الى المقابلات والروايات الشفهية ما دام الكثير من "ابطال" هذه المرحلة ما زالوا احياء ويمكن سؤالهم وتسجيل اجاباتهم او استنطاقهم عبر استمارات تتم دراسة الأجوبة التي تحملها. كل هذه المناهج تتضافر معا في مقاربة تعقيدات «حروبنا الصغيرة»، والتي تبدو من نسق ترتيب التقاطعات انها لم تكن صغيرة، كما تبدو عليه في الاحياء والمماريس المتقابلة وخطوط التماس المتواجدة بين شطري بيروت المنقسمة من اخمص قدميها حتى مفروق شعرها. تماما كما يحدث الآن، حيث يتطلب الآن معرفة ما في زاروب التمليص وبربور ومرتفعات سعدنايل وتعلبايا ناهيك بالشويقات وسواها لاكتشاف ما يدور حول الملف النووي الايراني والطروحات التي تدور حوله بين طهران ومجلس الأمن والاتحاد الاوروبي.. هذا خارجيا او دوليا على نحو اذق، ناهيك بالبناء المعطوب الذي اقيم في ظل الهيمنة السورية وانفجاره وعجز البنى الطوائفية والطبقة الحاكمة بشتى تلاوينها موالاة ومعارضة عن صياغة او اشتقاق مشروع موحد وجامع للشنتات اللبنانية، بعد نفاذ مفعول المرحلة التي اوكل لـ«المدير» السوري مهام صياغة العلاقات والتوازنات ورعايتها بما يضمن الهدوء المضبوط والوصاية المديدة .

يفضل سنو اطلاق صفة "حرب لبنان" على ما عداها من اوصاف لتحديد المرحلة التي عبرها لبنان بين ١٩٧٥-١٩٩٠ رافضا توصيفها بالحرب الاهلية اللبنانية او "الحرب اللبنانية" او «حروب الآخرين على أرضنا» بحسب عبارة غسان تويني وعنوان كتابه. واطلاق الصفة له دلالاته، نظراً لشبكة التعقيدات والتداخلات التي عرفتها، فالحرب تلك - كما هي اليوم - لم تكن اهلية تماما، ولم تكن لبنانية فقط بهذا المعنى. اذ ان اطلاق لبنانية عليها يجعل من العسير على الفهم ادراكها او الاحاطة بجوانب اساسية، خصوصا وان ما شهدته احداثها وكان رئيسيا يصبح خارج السياق. اذ ان داخلية الحرب تجعل من الدخول والاقامة السورية من جهة والاحتلال الاسرائيلي وصولاً الى العاصمة بيروت، من جهة ثانية امراً عصيا على الاستيعاب او الاحاطة. هذا ودون توسيع نطاق الخارطة الجيوسياسية الى كل من مصر والسعودية والاردن والعراق... وصولاً الى ايران في اعقابها. كما ان اميركا والاتحاد السوفياتي - قبل انهياره - وفرنسا وايطاليا وغيرهم تخرج من دائرة المعايينة هي الاخرى. بالطبع لم تكن الحرب حرب الآخرين، والا كان اللبنانيون مجرد شعب هائي، يعيشون الوئام والانسجام الكاملين، حتى شاء "الاخرون" وحظهم الجغرافي العاثر ان تكون أرضهم مسرحاً لتطاحن الجيوش والسياسات، وهذا ليس صحيحاً البتة. فالحرب كما تتبعتها سنو "لم تكن في كثير من مراحلها صراعاً داخلياً صرفاً بين اللبنانيين. فقد استطاع العامل الخارجي (الفلسطيني، الاسرائيلي، السوري، العربي، الايراني، الدولي) ان يستغل تناقضات المجتمع اللبناني وضعف تماسكه، وانعدام سيطرة الدولة عليه والامساك به وهشاشة بناء المؤسسات والسياسيين للتلاعب بالتوازنات الداخلية في سبيل تحقيق مصالحه". هذا النص الحرفي الذي يقوله سنو ماذا يعني بالضبط؟ انه يقول بصريح العبارة ان ابعاد الحرب في لبنان كانت مركبة على نحو مدهش، فهي بقدر ما كانت وتكون حرباً دولية - اقليمية - اهلية. اي ان العناصر الثلاثة المكونة لها متوازنة الاداء تماما في اندلاعها واستمرارها وصيرورتها وحتى في بلوغها محطة اتفاق الطائف وما نتج عنه من بنى سياسية اثبتت انها قاصرة عن تحصين الموقع اللبناني من "رياح السموم" المندلعة على امتداد المنطقة العربية ودول الطوق المحيطة باسرائيل تحديداً، هذا ناهيك بدول الخليج، حيث موفور ومخزون النفط له الاولوية في صراع الثنائية السوفياتية - الاميركية ويزداد ثقلاً في اعقابها. يمكن الاستنتاج في ضوء ما تقدم انه بقدر ما كان ويكون الداخل مهياً بقدر ما يلعب الخارج دوره كاملاً. اذن لا مجال للصدفة بتاتاً او حتى للتذمر من وقوع هذه الجغرافيا السياسية في ممر العواصف

العاتية. الداخل خارجا والخارج داخلا. حدث هذا في غضون حرب العقود الثلاثة وحدث قبل في العام ١٩٥٨ وقبل هذا القبل منذ زمن المتصرفية والقائميتين قبل وبعيد منتصف القرن التاسع عشر. وبالتالي فلا جديد بمعنى من المعاني تحت شمس هذا الكيان وحتى قبل ان يتكون حاملاً اسم دولة لبنان الكبير في العام ١٩٢٠ من قصر الصنوبر. ليس هناك من لعنة اذن، تشبه لعنة قبور الفراغة، بل تقاطعات وسياسات وصراعات وجغرافيا وبنى هشة وعجز مؤسساتي في السياسة وغيرها... وكلها تنتج واقع حروب مقيمة مع فترات من الهدوء العارض. كأن اللبنانيين محكومون لما يشابه اقدار ابطال التراجيديا اليونانية، لكن هنا لا تتعدى الاسطورة الجماعة الطائفية عندما تضمحل الذاكرة المشتركة، وكأنهم ليسوا سوى وحدات مقاتلة في تشكيلاتهم الاهلية المتنازعة، لا هم ان يكون ذلك يصب الماء في طاحونة هذه القوة الدولية او تلك الاقليمية، ما دامت "تنفتحهم" بالسلاح والاموال والرعاية مقابل الادارة الكاملة والتوظيف .

ينطلق سنو في دراسته الحرب من ما قبل اندلاعها او انفجارها الرسمي في ١٣ نيسان ١٩٧٥. يطرح هنا الكثير من الاسئلة حول التطور التاريخي - السياسي - الاجتماعي للطوائف اللبنانية. ويتساءل ايضا عن الاكثر تسريعا للتفجير من بين العناصر المتضاربة على حدوثه: السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، ام انها كانت تسير جنباً الى جنب مع العناصر الخارجية. هنا يدرس بنية البلد وطابع الخلل الذي تعانیه من جوانبه، خصوصا وان اندلاع حرب كما حربنا لا يمكن ان يحدث كصاعقة في سماء صيف صافية، لكن مثل هذا الخلل كي يصل الى مرحلة التفاعل القسوى يتطلب الامر اكثر من ازمات سياسية واقتصادية واجتماعية، بل لا بد وان تتوفر عوامله الخارجية، وهنا تتعدد الادوار دولياً واقليمياً على حد سواء. وفي غضون ذلك تكرر المحطات، بدءاً من حرب السنين والتدخل السوري والاجتياحين الاسرائيليين وانفلات الصراعات المتداخلة على مداها، وكيف قاد القتال او «الانتحار» كما يسميه الى سقوط التعايش التوافقي وبروز التهجير والتفوق الطائفي والمناطقية والثقافية والاقتصادي وتدهور المداخل ومستوى المعيشة. كل هذا يستغرق اقل من عقدين من عمر تلك الحرب توصلنا الى اتفاق الطائف والعناصر المكونة له: داخلية، عربية، دولية... ويطرح على هذا الاتفاق اسئلته التكوينية المؤسسة للوصول إليه ومدى التقاطعات المتداخلة التي ادت الى انتاجه، انتهاء بما هو اخطر لجهة قدرة مثل هذا الاتفاق على صياغة مستقبل اللبنانيين بعيداً عن النزاعات الداخلية والاستعمالات الخارجية. ولا يدع سنو جانباً من الجوانب المكونة للحرب داخلية وخارجية الا ويقاربه محاولاً عبر جهد وصبر نادرين تقديم هذا الحدث الكبير بكليته ومن كل مكوناته .

عبر جهد كثيف وفردى يقرأ سنو الكليات والجزئيات في الحرب، لكن ما يخترق تلك القراءة وهنا فرادة العمل عن سواه من المقاربات هو ذلك التشديد المزدوج على انسداد شرايين الصيغة اللبنانية بفعل عواصف المنطقة معطوفة على تناقضات مركبة فيها من الداخل بقدر ما فيها من الخارج. لكن ما لا يغيب عن ذهن سنو أبداً هو وقوع الكيان اللبناني في ممر الصراع الإقليمي المنذلق على نحو كاسح، فإذا كان العامل الفلسطيني وانتقاله الى لبنان هو العامل المقرر فإن السياستين السورية والإسرائيلية جعلتا من إمكانية استعادة حد أدنى من الانتظام السياسي والمؤسساتي أمراً مستحيلًا بالتأكيد. في غضون العقود الثلاثة عرف لبنان مشروعين للسيطرة عليه. أولهما مشروع إسرائيلي له جذوره في الخرائط القديمة للحركة الصهيونية وبلغت ذروتها في اجتياح العام ١٩٨٢ ومحاولة فرض اتفاق ١٧ أيار على لبنان. والثاني مشروع هيمنة سورية وهو الآخر مر بمحطات ومحطات أولها كان في دخول الوحدات السورية الى لبنان في العام ١٩٧٥ وآخرها كان في تولي "تعهد" تنفيذ اتفاق الطائف وإدارة الصراعات في لبنان بما يقود الى استمرار دورانه في فلك الاستخدام

كورقة في التفاوض مع القوى الإقليمية والدولية. سقط الأول تبعاً عبر ضربات المقاومة بدءاً بشوارع بيروت وصولاً الى مرتفعات الشريط الحدودي.. ورحل الثاني على وقع التظاهرات بينما كانت دماء الرئيس رفيق الحريري ورفاقه ما تزال طرية.. لينفتح المآزق اللبناني - الداخلي - الإقليمي - الدولي على مداه، كما في اللحظة الراهنة وسط تفكك مضاعف ..

صراعات

خلال هذه الرحلة من الوعي للموقع اللبناني والعناصر المؤثرة فيه في الداخل والخارج، واعتماداً على كثافة المستندات المعتمدة في إنجاز هذا العمل، كان من البديهي أن تمر العديد من الأخطاء التفصيلية التي تتطلب التصويب في الطبقات اللاحقة، وتدخّل هذه في باب "الهتات الهيئات" ومثال ذلك، عدم الإشارة الى محاولة قائد اليسار اللبناني في العام ١٩٦٩ ممثلاً بقيادة كمال جنبلاط عندما كان وزيراً للداخلية ضبط العامل الفلسطيني عند حدود مقابل إصلاحات على النظام السياسي (ص ١٨٣) وعدم الإشارة الى حكم المكتب الثاني للمخيمات (ص ١٩١) وتكرار أن علاج الانفجار كان يجب أن يتم عبر تكليف المؤسسة العسكرية اللبنانية بمهام فرض الأمن واعتبار ما شهدته عين الرمانة حادثة (ص ١٩٤) و(٢٧٠) مما يطرح اسئلة عما شهدته قبله ومنذ العام ١٩٦٨ و.. اعتبار ان سياسة العزل ضد حزب الكتائب هي المسؤولة عن تكتل المسيحيين وراءه، وعدم إيلاء الأهمية التي يستحق للبرنامج المرحلي للحركة الوطنية للإصلاح السياسي والاجتماعي (ص ٢٧١). ومسألة المفاوضات بين كمال جنبلاط وسوريا قبل تدخلها الواسع في لبنان (ص ٢٧٥)، إذ ان طموح الحركة الوطنية في حينه كان دعوة سوريا الى ممارسة الضغط على "الجبهة اللبنانية" للوصول إلى الإصلاح في بنية النظام، وهو ما كان مرفوضاً من الفريقين معاً) (ص ٢٧٥)، وتناسي الإشارة الى محاولة القوات المشتركة اللبنانية - الفلسطينية فك الحصار عن تل الزعتر انطلاقاً من الهجوم الذي شنته انطلاقاً من المتن باتجاه المونتي فردي، وقوله (ص ٣١٤) ان "المرابطون كانوا الميليشيا الوحيدة التي قاومت الجيش الغازي في اجتياحه لبيروت" - بالحرف -، وتجاهل إعلان كل من: محسن إبراهيم وجورج حاوي عن قيام جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية في ١٦ أيلول، ١٩٨٢، واعتبار ما جرى كان عمليات "فدائية فردية" (نفس الصفحة). وما ورد في الصفحة ٣٣١ حول تبدل موقف السنة في المنطقة الغربية من بيروت من زعيم "القوات اللبنانية" بشير الجميل متطابقاً مع ما أورده أيضاً جورج قرم.. تبدل أم تكيف مع الأحكام القاهرة التي بلغت ذروتها في خروج القوات الفلسطينية من بيروت.. أو اعتبار "انتفاضة ٦ شباط ١٩٨٤"، (ص ٣٦١) هي محصلة لجهود حركة "أمل" وزعيمها نبيه بري، بينما كنت المعركة تحت راية أمل وبمشاركة وطنية - لبنانية - فلسطينية - سورية.. أيضاً يصف سنو أمين الجميل خلاف أخيه بشير الجميل الذي أراد "إقامة دولة قوية في لبنان وحل الميليشيات والانفتاح على المسلمين"، علماً أن الثاني كل ما فعله هو استكمال ما أراده الأول في إخضاع الجبل وبيروت بالأداتين العسكريتين الميليشياوية والنظامية (ص ٣٦٥). أيضاً في الصفحة ٣٦٧، "ان الموارنة كانوا بين خيارين اثنين: سكن القوات المشتركة او التعامل مع الشيطان، اي طلب: المساعدة من الإسرائيليين". هل يمكن التفكير بالتفاوض والقبول بالإصلاحات مثلاً كخيار ثالث؟! يقرأ سنو حروب الميليشيات والصراع على القرار (ص ٣٩٥) (باعتبارها محطات مهمة لانتحار لبنان.. علماً أن هذه الحروب يمكن قراءتها في ضوء إدارة صراعات القوى المحلية إقليمياً، تمهيداً لوضع اليد على البلد بأسره، مع الاعتراف بمحاولة السيطرة على الحيز الطائفي - المناطقي من جانب هذه القوى.. يرد في الصفحة (٤٢٠) أن سوريا عبأت حلفاءها للقضاء على تحالف شعبان - عرفات في ١٩٨٣ وضمن القوى التي يحتسبها منظمة العمل الشيوعي وهو ما ليس صحيحاً. يقول سنو (الصفحة ٤٤٧) (على لسان أليير منصور

مضيفاً إليه لقب أحد أركان الحركة الوطنية اللبنانية، وهو يتحدث عن العام، ١٩٨٨، علماً أنه لا
يضيف سابقاً الى هذه الصفة، باعتبار أن الحركة هذه قد أعلن حلها خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان
صيف ١٩٨٢ أي قبل ست سنوات.. يمكن العثور على العديد من هذه الملاحظات التي تندرج في
إطار مشابه لما ورد في المجلد الثاني أيضا .
على أي حال يبقى القول ورغم بروز النزعة البيروتية - السنية في العديد من الصياغات، أن سنو
قدم الحرب في لبنان على نحو موسوعي، ينطلق من غنى تلك التجربة ودلالاتها.. ولعل هذا
بالضبط ما يغيب وسط المحن المتلاطمة أبداً دون هوادة أو انقطاع بدليل عدم الافادة من دروسها،
كما يثبت الآن وبالأمس .

«حرب لبنان 1975-1990»: نظرة شاملة إلى واقع مُجزأ - بقلم: حسام عيتاني

يكاد عبد الرؤوف سنو لا يفوت وجها من وجوه الحرب الاهلية اللبنانية الا ويتناوله بالدرس والتدقيق، من الفوراق والتباينات في النظر الى الثقافة الوطنية واللغة العربية وصولا الى حروب الازقة بين الميليشيات في بيروت الثمانينيات، ومن المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي الى جولات المفاوضات الدبلوماسية التي لم تتوقف طوال خمسة عشر عاما بين جميع المعنيين بالصراع الدائر، واسفرت في نهاية المطاف عن اتفاق الطائف، وبين هذه وتلك حروب فرعية بين فئات قيل انها متحالفة او انها من «ابناء الصف الواحد» الذي اتت الحرب على وحدته.

الاحاطة الشاملة هذه تطلبت منها اكاديميا صارما يذهب بالتدرج من استعراض القوى السياسية والطائفية ووجهات نظرها في الوطن والتعايش بين فئاته، الى تقديم لمحات عن الوضعين الاقليمي والمحلي في الاعوام التي سبقت اندلاع القتال في العام 1975 جاعلة من لبنان بؤرة توتر وصدام فاقمت من التناقضات الداخلية.

يفترض هذا النوع من الكتابة التاريخية، وللدكتور سنو مساهمات سابقة فيها، تلمس جوانب قد لا تبرز الى واجهة الاهتمامات عند انفجار التناقضات حيث يهيمن عندها الهاجسان السياسي والامني المباشران. لذا، تحضر بتوسع اهتمامات تتعلق بالاقتصاد وتأثره بالحرب واستيلاء الميليشيات المسلحة على الاقتصاد وتطويعه لمصالحها، ودور القطاع المصرفي والاداء الاعلامي. ويرصد عبد الرؤوف سنو بتفصيل وتوسع الآليات التي عملت على مدار اعوام على هدم بنية الدولة التي اضطرت تحت عبء الانقسام «الميداني» الى انشاء فروع لادارتها فساهمت، من حيث ارادت ان تخفف معاناة المواطن، في تكريس التباعد بين اللبنانيين، الى جانب ما لحق ببنى أخرى كثيرة في الاقتصاد والاجتماع، دارسا الحالة الاجتماعية المعيشية عند اللبنانيين مع تطول فترة الحرب الاهلية وتأثيراتها على الاسرة والقيم الاخلاقية والتماسك الاجتماعي. ولعله من المفيد لباحث في الشأن اللبناني العثور على كل ما سبق وغيره الكثير، في سفر واحد من مجلدين كبيرين، قد يغنيان عن البحث والقراءة في عشرات المصادر المتفرقة. وهذا وجه مباشر من اوجه الفائدة التي نزع ان القارئ قادر على ايجادها في كتاب «حرب لبنان 1975-1990: تفكك الدولة وتصدع المجتمع».

وقد يكون من ميزات الكتاب افراده اقساما مهمة منه لادوار المؤسسات الاهلية التي عملت على التخفيف من وقع نوازل الحرب على اللبنانيين، من هيئات صحية واجتماعية عادة ما كانت ادوارها تغيب وراء صور القيادات السياسية والعسكرية، ما ادى الى اغماطها حقها في الكثير من المناسبات على الرغم من تضحيات لا تنكر قدمتها. يضاف الى ذلك ان الخلفية الاكاديمية لسنو ربما ساهمت في تشجيعه على التوسع في تناول الحالة التعليمية في لبنان اثناء الحرب من زوايا متعددة.

وجه آخر قد لا يقل اهمية يكمن في ان المجلدين هذين الصادرين في الذكرى الثالثة والثلاثين للحرب الاهلية، يأتیان في مرحلة تعود فيها اشباح الاقتتال الداخلي لتلاحق اللبنانيين. ولا مفر في مواجهة الاشباح هذه من التمعن في الظروف التي قادت الى الانفجار الكبير في نيسان 1975 وما سبقه من خلافات عميقة داخلية ومن بحث عن ساحة لتفجير الصراعات الاقليمية بعد حرب العام 1973 التي ثبتت نوعا من التوازن على الجبهات التقليدية للحروب العربية الاسرائيلية في سيناء والجولان وغيرها. يدفع هذا الى ممارسة عادة التصنيف السياسي لكل عمل يدور حول الحرب اللبنانية.

يدرأ الكاتب وقوع قارئه في فخ التبسيط والتسرع في اطلاق الاحكام من خلال الاحتكام الى عدد كبير من المصادر والوثائق والمقابلات مع شهود عايشوا تلك المرحلة مساعدا القارئ على تكوين رأيه الخاص من دون ان يكون الكاتب بعيدا عن المشهد. لذا لن يكون مفاجئا ان اللهجة الموضوعية العامة للكاتب لم تختل على طول صفحاته، من دون ان تغادر، في الوقت ذاته، موقفا مؤيدا للخيارات العريضة للقوى التي قالت انها تعمل وتنشط من اجل تكريس هوية لبنان العربية وما يتفرع عنها من التزامات.

الموقف الذي وصفناه بالعريض لا يذهب الى حدود التعميم الايديولوجي والالتحاق الساذج بأي طرف من اطراف القتال. فلا مكان هنا للتبني المسبق لأي من مواقف الاطراف وآرائها، قبل تمريرها على مشرحة التمحيص والتدقيق في الوثائق واقامة الدليل على الوقائع موضوع التساؤل. كما يبدو واضحا اعتراض المؤلف على طروحات «القوميين اللبنانيين» الذين قطعوا اشواط بعيدة في السير نحو عزل لبنان عن العالم العربي، وكل ما تبع ذلك من مغامرات مثل التعامل مع اسرائيل وهو ما قاد الى عواقب وخيمة.

ولا يخفى ان تأريخا ينطلق من زوايا متعددة ليرسم صورة لبنان اثناء الحرب الاهلية، في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، يشكل زادا ضروريا للمساهمة في فهم وتشخيص الازمة التي يتردى فيها بلدنا اليوم. وعلى الرغم من وفرة الكتابات التي تناولت الحرب وظروفها، فإن المشكلة كانت دائما، وما زالت في ندرة القراءات. فأن يقوم كاتب مثل عبد الرؤوف سنو بهذا الجهد الضخم الذي استغرق سنوات من العمل و«تورط» فيه الى جانبه عدد من الذين ساعدوه على توفير المادة البحثية، يبقى في احسن الاحوال، نصف المهمة الملقاة على عاتق اللبنانيين وخصوصا الاجيال الشابة من بينهم، المطالبة بتعميق فهمها وادراكها لواقع وطنها وللتجارب التي مرت عليه، كوسيلة لا غنى عنها لمنع الوقوع في الفخ ذاته مرات عدة.

وعلى غرار كل الكتب المتعلقة بمراحل صراعية من التاريخ، لن يكون الكتاب هذا موضع اجماع من قبل الاطراف التي شاركت في تلك الحرب والتي ما زال بعضها يتصدر الساحات السياسية، غير ان المهم في المسألة هنا هو ان الكتاب يشكل اصرارا على الاستمرار في الجدل والحوار بين اللبنانيين حول تاريخ وحاضر ومستقبل تعايشهم ووطنهم ودولتهم. عبد الرؤوف سنو، «حرب لبنان 1975-1990: تفكك الدولة وتصعد المجتمع»، جزآن، «الدار العربية للعلوم - ناشرون»، 2008.

حرب لبنان (١٩٧٥ - ١٩٩٠) «لعبد الرؤوف سنو

بيروت هي الأصل



ابراهيم بيضون

ذات يوم من ربع قرن على الأقل -
وكان حديث العهد زميلاً في الجامعة
اللبنانية - أطلعني سنو على بحث،
طالباً إبداء رأبي فيه.. ولما التقينا
مجدداً، أذكر أنني قلت له: ستكون
مؤرخ بيروت، إن لم تكن كذلك
الآن»، وكنا لا نزال معاً، أتابعه عن
كثب، ويطلعني احياناً على بعض
أعماله قبل نشرها، وفي كل مرة
كان يبدو لي أكثر نضجاً، وأوضح
منهجاً، وأمتن أسلوباً، بعد ان كانت
اللغة تربكه بصورة ما. ولم يكن ذلك
ممكناً من دون ذلك الدأب المدهش
على العمل، مستغرقاً حتى الغلس
في رصد المادة الموضوعية من
مصادرها العربية والألمانية
والانكليزية، حتى اصبح في ما حققه

من أبحاث رهينة، خليفاً لما توقعته في البدايات له. وليست التجربة دائماً مما يُجدي، او بالضرورة
لما يذهب الى العمق، فكم من باحثين خانتهم التجربة، ولم تضيف - على الرغم من غزارة الإنتاج -
جديداً، او تُكسبهم تميزاً، فكانت آخر أعمالهم كأولها، ركاكة وتسطحاً، واقتباساً عشوائياً ليس فيه ما
يستحق عناء القراءة .

ومن طبيعة عبد الرؤوف سنو، أنه يكتب بمعاناة، وهي أدوات المؤرخ، حيث تمتزج الصدقية
بالموضوعية في نصه الذي يأتي دافئاً، مسبوكا في آن، منطلقاً من نقد صارم للوثيقة واعادة
تركيبها في ضوء منهج عقلائي، يعتمد السببية مبدأ في اكتناه ما أمكن من الحقيقة التاريخية. كان
ذلك شأنه في دراساته السالفة التي عكست في الغالب شخصيته وطريقته ومنهاجه، وربما فرادته
في اختياراته، أكاديمياً ملتزماً بدوره وموجباته .
وإذا سنو يفاجئنا بتغيير حركة سيره، من البحث الى الموسوعية، ولكن من دون ان تكون الأخيرة،
في منحاه الأفقي، منفصلة عن الأول الذي يسبر العمق.. أما الموضوع فهو «حرب لبنان ١٩٧٥ -
١٩٩٠»، مندرجاً في دراسة متكاملة عن تلك الحرب ولم تفته شاردة منها، إذ أحاط بكل
تفاصيلها، معطيات واسباباً ومقدمات ونتائج، حتى ليتمكن المبالغة في القول، إنه ما من كلمة الا

ورصدها في الوثائق والصحف والكتب والمقالات والمؤتمرات والندوات، وكل ما قيل هنا أو هناك، غير منحاز الا عندما تمس المسائل جوهر الدور، فما من حياد مطلق حينئذ بين الوطن والمتأمرين عليه، او بين الشعب الأعزل والقتلة من الصهاينة او من يلوذ بهم لسبب أو لآخر.. أولئك الذين اجتاحوا لبنان بمدنه وقراه، وانتهكوا حرمة عاصمته. حتى انتفضت عليهم وأخرجتهم مذعورين أذلاء، قبل ان ينتقموا مع عملائهم، مجزرة مشينة استهدفت المدنيين في مخيمي صبرا وشاتيلا، تلك التي ظلت وصمة عار لمن غاصت اقدامه في الدماء المهدورة عن عبث وحقد لا حدود له في تلك «الليلة الظلماء».

تندرج الموسوعة في مجلدين، يزيد كلاهما عن الف وثمانئة صفحة، الأول يتناول «مفارقات السياسة والنزاعات المسلحة والتسوية»، والثاني، «التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية». نحن اذاً أمام موسوعة ليست مما هو مألوف في هذا النمط، فهي تتعدى رصد الاحداثيات وتصنيفها، الى دراسة الظواهر والتوقف عند أسبابها، وصولاً الى مقاربات مهمة، كتلك التي يكتنفها البحث التاريخي عادة في مساره واطروحاته. هذه الحرب، ليست تشبه ما سبقها من صراعات موضوعية بين فئة وأخرى، او بين تيار سياسي قومي وآخر محلي، مرتبط بسياسات القوى الدولية، حفاظاً على امتيازاته، وانما كانت حرباً شمولية عصفت بكل لبنان، واتخذ فيها العنصر الفلسطيني دوراً بارزاً، يقابله العنصر الصهيوني بدوره الداعم لما سُمي حينئذ بالقوى الانعزالية، ذلك الذي تتوجّج باجتياح ١٩٨٢ وأسفر عن اجلاء المنظمات الفلسطينية المسلحة عن لبنان .

كان ذلك في الظاهر والمعلن عن الحرب التي قيل في تقويمها، انها «حرب الآخرين على أرض لبنان»، في محاولة لنفي العامل الداخلي عنها، مع العلم ان المسألة الفلسطينية ليست سوى جزء من تراكم متعدد الوجوه، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، وقد كان لا يزال يتفاقم حدة منذ دولة الاستقلال، وأكثر ما يصيب شرائح الفقراء في أحزمة اليأس، القائمة على هامش الدولة المتضعضة في الاساس. يقول سنو في توصيف الحالة اللبنانية عشية الحرب: «اعتُبرت حرب لبنان المختبر التاريخي والاجتماعي والسياسي، لتناقضات المجتمع اللبناني.. وتجلت في النظام السياسي وما يقدمه من مكاسب وفوائد لطائفة على (حساب) أخرى، وحدثت في اطار صراع داخلي بين اللبنانيين أنفسهم حول المسار التاريخي الذي كان على وطنهم ان يأخذ به في مرحلة تاريخية دقيقة أتت في سياق النزاع العربي - الاسرائيلي، وتحول المنظمات الفلسطينية الموجودة على أرضه، الى عامل مؤثر وفاعل في خلق التجاذبات الطائفية بين اللبنانيين، فضلاً عن تفاقم الخلافات بين الأنظمة العربية وتدخلها مع القوى الاقليمية والدولية في الأزمة اللبنانية .»

هذه العوامل، متضافرة، أدت الى انفجار الحرب وتصعيدها بعد زيارة السادات لاسرائيل، وعزله مصر عن القضية العربية، ما جعل لبنان، في موقعه الجغرافي وتكوينه الديموغرافي، أرضية خصبة لتلقي المؤثرات الخارجية والتفاعل معها، وبالتالي ضحية لهذا الموقع الذي ما زال يؤدي ضريبة التداعيات، حتى الآن، في المنطقة. بيد ان المسألة على تعقيداتها، يبقى العامل الداخلي ما رهصت به الحرب، خصوصاً المتعلق بالخلاف على الهوية، والتفاوت الاجتماعي بين فئة تتشبث بامتيازاتها، وأخرى تسعى الى مشاركة أوسع في السلطة. ولم يكن التدخل الخارجي ممكناً، لو حظي المجتمع اللبناني بقدر من التماسك، او انحسرت الفوارق بين فئاته، ونال المحروم فيه ما يرسخ المواطنة في وعيه السياسي والاجتماعي. ولا نجافي الحقيقة اذا قلنا ان كلا الطرفين كان يفقد الى هوية واضحة، فالمترفون والممسكون بزمام السلطة، قدموا الامتيازات على الانتماء، كذلك الذين يشعرون بالغبن لم يجدوا ما يشجعهم على الولاء بحماسة لوطن عاشوا طويلاً على ضفافه. ولم يعد اليوم كالبارحة، فقد اشتبكت المواقف، وثمة من خرج من تاريخه وانتهك المقدس، لتكون له امتيازات جوفاء على حساب وحدة الوطن والشعب والمصير. ودائماً «ما أكثر العبر

وأقل الاعتبار « في وطن لا يقوم الا بوحدة أبنائه ومشاركتهم جميعاً في تحديد مساره، فيما الاتكاء على الخارج شر مستطير على الجميع، حتى الحلفاء الأقربون .

تسوية هشة

تستوقف سنو مفارقة في هذا السياق، هي ان الصراع ينتهي دائماً الى تسوية، وهي هشة في النهاية، اذ لا أحد يُحاسب على اخطائه، بما فيها جرائم الحرب والمجازر المروعة في بهيمات الليل ووضوح النهار. واذا حدث - وهو أمر نادر - ان أحداً خضع، لا اعتبارات ما، للمحاكمة، او جرّ نفسه، بسلوكة المتطرف إليها، فانه لا يلبث ان يخرج من السجن « بطلاً » يحاكم الآخرين، ويحاول رسم صورة للوطن على «طريقته». هكذا تاريخ لبنان اذاً: حروب وجرائم وتسويات ومواقف انقلابية هزلية لدى محترفي السياسة، ممن يسخرّون الوطن لمصالحهم الشخصية، وطوائفهم في كل الخيارات وراءهم، وهم في النتيجة «نخب» لم تغادر قط عصبيتها الراسية في العقول. وقد يكون أبلغ الكلام في هذا السياق، ما عبّر عنه الشاعر الراحل محمود درويش في قوله: «لا أحد يفهم لبنان! لا أصحابه المجازيون ولا صنّاعه، لا بُناته ولا مدمّروه، لا الداخلون اليه ولا الخارجون منه.. لن نفهم لبنان الى الأبد .»

ومع ذلك فإن سنو لا يفقد الأصل بقيامة لبنان، فهو «يستحق» برأيه ان يُعطى فرصة أخرى للحياة، اذ ما تحلى بنوه بالجرأة على نقد الذات ومراجعة التجربة، ونبذوا نوعي التكاذب الاجتماعي والسياسي، وأعلنوا صراحة عن مواطن الضعف والوهن في تعایشهم الطوائفي، ولم يخفوه بمساحيق تجميل مغشوشة لتعایش طائفي هشّ يتأرجح بين حين وآخر بين الوفاق والنزاع.. وفي استطاعة لبنان ان ينتقل من حالة التعایش الطائفي الى حالة تعایش وطني، تتجسد فيه قيم الحرية والعدالة والمساءلة والتكافؤ في حقوق المواطنة والتعبير، ويجب ان يكون هذا الأمر هدف الجميع .»

رأي آخر

هذا الوطن الذي يحلم به سنو، كان لا يزال الكيان الصهيوني يتربص به ويحول دون قيامه، سواء عبر التحريض على اشعال الفتن الطائفية فيه، او عبر العدوان المتكرر على أرضه، لا سيما الجنوب الذي عانى منذ الستينيات أفدح المآسي قتلا وتدميراً وتهجيراً، الى انقطاع جزء منه أكثر من عشرين عاماً عن الدولة التي غابت بدورها عنه. ولكن الدكتور سنو له رأي آخر في هذا الصدد، متسائلاً «اذا كان من الممكن ان تتجح محاولة بناء لبنان جديد يصبح.. واحة للحرية والديموقراطية والعيش الواحد، فيما تغيب شمس الحرية عن محيطه» (ص ٢٧). أهل هذا صحيح، فمثلاً هذا الوطن اذا قام على هذه الصورة، يفضح الأنظمة الملكية وشبه الملكية التي تنكئ على الخارج، ولا تلقي بالا لشعوبها الراضخة للاستبداد. وفي النهاية يبقى لبنان رهين واقع يصعب الافلات منه، والدولة القوية العادلة، دونها عقبات وتناقضات، ولا سبيل إليها الا بالتححرر من الوصاية، لا سيما التي تمارسها الولايات المتحدة الأميركية في زعمها المتكرر بأن لبنان السيادة والحرية والديموقراطية ما تتبغيه، فيما تعمل جهراً في كل حراكها من اصل ترسيخ الأمن الاسرائيلي، باستهداف المقاومة اللبنانية، من دون ان يعينها شيء آخر مما يتردد يومياً في خطابها الملقق، المشجّع على الانقسام. ويجب د. سنو أخيراً على تساؤله السالف، بشيء من التفاؤل، معترفاً بأن الخارج يُفسد الداخل، ولكنه يؤكد ان اللبنانيين لو أمكنهم ان «يتخلوا عن أوهامهم

النظرية ويتحلوا بالعقلانية والواقعية»، لما كان صعباً عليهم التوحد «في ظل دولة قوية قادرة على صنع قرارها بنفسها .»

هذه بعض أفكار يطرحها سنو في تأملاته للخروج من رواسب الحرب التي أرّخ لها بشتى جوانبها العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية متوغلاً في خلفياتها وأسبابها، في سياق منهج علمي تحليلي، مدعم بالوثائق والاحصائيات، الى مقابلات مع شخصيات عاصرت تلك الحرب، واكتتعت اسرارها، الى كل ما توفر لهذه الموسوعة من مادة غزيرة، أحسن توظيفها بخبرة المؤرخ وموضوعيته .

من الصعب جداً أن نحيط بعمل على هذا المستوى من التفصيل والدقة في آن، عمل يضع امامك خريطة كاملة لحرب لبنان بكل متأثراتها ومؤثراتها الداخلية والخارجية، بكل ما أفرزته من مأس وكوارث واختراقات للمألوف في المفاهيم السياسية الوطنية والقومية، واصطفافات للطوائف ما يزال يعانيتها الوطن المنكوب حتى اليوم. واللافت في الموسوعة، ليس في رصدها ترصد يوميات الحرب، مدعمة بجداول احصائية مكثفة فحسب، بل في تتبعها للتحويلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، في دراسة معمقة لانهايار مؤسسات الدولة، وانعكاس ذلك على قطاعي الصناعة والزراعة، ما أدى الى هجرة نسبة عالية من اللبنانيين الى الخارج، بالإضافة الى القطاع التربوي، لا سيما الجامعة اللبنانية التي تعرضت للتفريع وتراجع مستواها الى حد كبير، من دون ان تحظى بما يرد لها اعتبارها، مؤسسة علمية وطنية بعد الطائف .

واذ اصبحت الدولة عاجزة عن القيام بواجباتها ازاء المواطن، في المجال الصحي والاجتماعي، فقد تصدّت المؤسسات الأهلية لهذا الدور، وحملت عبء الاغاثة والطوارئ والدفاع المدني، فضلاً عن اقامة مستشفيات ميدانية كانت الحاجة ماسة اليها، خصوصاً إبان الغزو الاسرائيلي (١٩٨٢). واذا كان د. سنو قد أسهب، كعادته، في الحديث عن الهيئات الأهلية وأعمالها الجلية في بلسمه جراحات الوطن، فإنه اختص مؤسسة «عامل» التي بادر الى انشائها الدكتور كامل مهنا، بحديث مطول، هذه المؤسسة التي جاءت رداً على العدوان الاسرائيلي (١٩٧٨)، وما اسفر عنه من مجازر، نالت الخيام نصيبها الوافر منها. لقد ولدت هذه المؤسسة «جنوبية» بفعل الأمر الواقع المأساوي على الأرض المتاخمة للكيان الصهيوني، ولكنها ما لبثت ان اتخذت سمتها الوطنية في انتشارها على بقع عدة محرومة في لبنان، وذلك تحت شعارها المعروف: «معاً من أجل الوطن والمواطن». يقول د. سنو مقوماً دور «عامل» ورسالتها: حددت المؤسسة أهداف انشائها بتوفير الصحة والتعليم والسكن والغذاء والبيئة السليمة للجميع، وتمكين الفئات المهمشة من المشاركة الفعلية في العملية التنموية، وتشجيع المبادرات المحلية، وإشراك النساء والشباب في الاستراتيجية التنموية للمؤسسة وتعزيز التنسيق مع الهيئات الأهلية، محلياً وإقليمياً وعالمياً .»

هذه الموسوعة مرة أخرى، ليست عملاً توثيقياً او جمعياً، مما هو مألوف عامة في هذا المجال، ولكنها، بالإضافة الى ذلك، دراسة شاملة ومعمقة، مبنية على وثائق واحصائيات وتقارير ندوات ومؤتمرات، واصدارات حديثة بالعربية والاجنبية، انتظمت في نحو ستين من الصفحات، هذا فضلاً عن فهرس عام للاعلام والمدن والقرى والمؤسسات والمعارك، وكل ما يمت بصلة الى موضوعه الحرب اللبنانية.. انها بالتأكيد انجاز فريد ومتقن، تصدى له المؤلف بروح علمية ومنهج متوازن، وربما لا يشوبها سوى ان بيروت كانت غالباً محور الحدث على حساب مناطق اخرى اصابتها لعنة الحرب، لا سيما الجنوب الذي شهد بعد اخراج منظمة التحرير من العاصمة، تحولات مهمة، مع بروز مقاومة لبنانية، أسست بعملياتها الجريئة لتحرير شريطه المصادر لاثنين وعشرين عاماً. فقد اختصرت بيروت في وعيه الحرب التي شربت كأسها حتى الثمالة، وما زالت

علقما في قلم سنو، ابن أميرة العواصم - بالإذن من طلال سلمان - التي ظلت عالمه اللبناني، من دون ان يتوسل ودها بكتابات جوفاء، ولكنه، بجهد ومثابرتة، بات مؤرخها، منذ توقعات الماضي الى واقع الحاضر .

السفير 2008/10/31

سنو: عوامل اندلاع الحرب تعيد انتاج نفسها

حرب لبنان ١٩٧٥ - ١٩٩٠: مقارنة عوامل اندلاعها بعوامل الأزمة الراهنة» هو عنوان المحاضرة التي ألقاها الدكتور عبد الرؤوف سنو في المركز الثقافي الألماني - جونييه بحضور حشد من الأساتذة الجامعيين والمهتمين .

الفرضية التي طرحها سنو، هي أن العوامل التي أدت إلى اندلاع الحرب عام ١٩٧٥ لا تزال هي نفسها اليوم، ما يجعل لبنان في حالة خطر على كيانه ودولته. ورأى سنو أن النظام الطائفي هو نفسه الذي جعل اللبنانيين في الماضي يختلفون في ما بينهم على السلطة والمناصب ويدخلون الحرب، وهو نفسه الذي يوجب الخلافات في الوقت الحاضر، معتبراً أن الميثاق الوطني واتفاق الطائف فشلا في نقل لبنان إلى مقام دولة حديثة تقوم على المواطنة، فبقي ساحة تتقاسمها الطوائف وتختلف عليها. وعزا سنو ذلك، إلى القوى السياسية القديمة المسؤولة عن اندلاع الحرب واستمرار الأزمة الراهنة، وهي التي تجدد نفسها باستمرار وتتلون بكل الألوان، فهي التي منعت في الماضي وفي الحاضر قيام الدولة القوية، ما جعل لبنان مفتوحاً أمام الخارج. ولاحظ سنو تغييراً واضحاً في نظرة اللبنانيين إلى هويتهم: في الماضي، استعر الخلاف حول العروبة واللبنانية، ثم ارتضى اللبنانيون في الطائف العروبة كمظلة للبنانية، فيما أضحى الخلاف اليوم حول اللبنانية والإسلامية برواج مقولة ولاية الفقيه. أخيراً، لم يستغرب سنو وجود السلاح خارج سلطة الدولة اللبنانية وسيادتها، معتبراً أن ذلك لازم لبنان منذ قيامه، مرواً بأحداث عام ١٩٥٨، والسلاح الفلسطيني والميليشياوي بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٩٠. وإذ فرّق سنو بين السلاح الفلسطيني وسلاح الميليشيات، اعتبر أن سلاح حزب الله جعل الحزب أقوى من الدولة اللبنانية .

وفي نهاية محاضرته، طرح سنو على اللبنانيين السؤال الصعب التالي: كيف يمكن إلغاء نظام طائفي من دون تهيش الطوائف المسيحية وإثارة مخاوفها من هيمنة إسلامية؟ وكيف يمكن جعل لبنان ديموقراطياً يخضع لحكم الأكثرية من دون تسلط المسلمين عليه؟ بمعنى آخر: كيف يمكن جعل أبناء الطوائف اللبنانية يرون لبنان الوطن في هويتهم ومصالحهم، ما يحصن بلدهم تجاه الخارج، ويبعد عنهم شبح الحروب والتقسيم أو الفيدرالية والتوطين؟ .

كتاب عبد الرؤوف سنوّ «حرب لبنان 1975 - 1990»
لنلا يُترك للذاكرة المتقلبة أن تشهد وحدها على ذلك التاريخ

المستقبل - الاحد 16 تشرين الثاني 2008 - العدد 3138 - نوافذ - صفحة 14

الياس القطار

أثارت حرب لبنان، وستثير دائماً، فضول الباحثين وعامة الناس، من حيث كونها كارثة حلت بوطن جميل، وظاهرة تاريخية انبرت الأقلام في الداخل والخارج لربطها بمثيل لها في التاريخ، من دون أن تجد شبيهاً لها في تاريخ لبنان والمنطقة والعالم، لا في الزمن القديم، ولا في الحديث والمعاصر.

حظيت هذه الحرب بدراسات من صحافيين لبنانيين وأجانب، ومن مراكز أبحاث، ومن أساتذة جامعيين. ومن بين آخر المؤرخين الذين ترصدوها، وبحثوا، بطريقة علمية منهجية موضوعية ناجحة، في أسبابها وظروفها وحيثياتها وتواترها ونتائجها، الدكتور عبد الرؤوف سنوّ، أستاذ التاريخ المعاصر في الجامعة اللبنانية، الذي خصّ سابقاً، الشرق الأوسط، والبلقان، والسلطنة العثمانية في مراحل تاريخها الأخيرة، بدراسات قيّمة.

حرب لبنان لعبد الرؤوف سنوّ عمل موسوعي في مجلدين، من 1808 صفحة زاخرة بالمعلومات والتحليل والاستنتاجات العلمية العقلانية المحايدة والاحصاءات واللوحات البيانية المعبرة جيداً عن الحدث وملخّصة له.

المجلد الأول يعالج عوامل التفجّر الداخلية في خلفياته وأسبابه، وعوامل التفجّر الخارجية والسياسات الإقليمية والدولية، ويتقصّى محطات الحرب من اندلاعها إلى إلغاء اتفاق 17 أيار 1983، مطلقاً عليها تسمية محطات الانتحار اللبناني - اللبناني والفلسطيني واللبناني - السوري واللبناني - الإسرائيلي والإسرائيلي - السوري والفلسطيني - السوري، مروراً بما اصطُح على تسميته بحرب السنّتين، والدخول السوري إلى لبنان، والإجتياحين الإسرائيليين، ووصول الرئيسين بشير ثم أمين الجميل إلى سدّة الرئاسة، وانتهاء باتفاق 17 أيار. كما يعالج حروب السلطة والجيش اللبناني والقوى الخارجية من سورية وعربية أخرى وإسرائيلية وأميركية وفرنسية، وفي مقدّم هذه الصراعات حروب الميليشيات الدموية، وما رافقها من تصفيات وخطف ونهب بعد الاجتياح الإسرائيلي، في المناطق المسماة وقتذاك الوطنية الإسلامية، والمناطق الشرقية التي شهدت صراعاً بين منطقتي الدولة - الحزب مع الرئيس أمين الجميل، والميليشيا - الكانتون مع القوات اللبنانية، مع توقف عند وصول الجنرال عون إلى قصر بعبدا، وما نجم عن ذلك مما سمي حرب إلغاء وحرب تحرير. كما يتوقف عند حالة الفوضى العارمة في بيروت الغربية التي كان لسوريا يد في تنظيمها، لكي يسمح لها ذلك العودة إليها بعد انسحابها المذلّ إثر الاجتياح الإسرائيلي، ويسمح لها بالقضاء على أي وجود عرفاتي في لبنان. ويغوص في انهيار التعايش الطوائفي مع تصدّع الميثاق الوطني وسقوطه، وأزمة الثقافة والهوية والاندماج المجتمعي. ويشرح مسألة الحوار في ظلّ المدفع من 1975 إلى 1981، محلاً مواقف الأطراف المحلية ومبادراتها للحلّ من أحزاب وحركات سياسية وحكومة ومجلس نيابي ومرجعيات روحية. ويعرض ويحلل المبادرات السورية والسعودية ومؤتمرات الحوار في جنيف ولوزان والمبادرات الدولية للحلّ: الفاتيكانية والأميركية والفرنسية والسوفياتية. وأخيراً يعالج اتفاق الطائف الذي أَرْضى السُنّة، أكثر مما أَرْضى المسيحيين الذين شعروا بتقليص صلاحيات رئيس الجمهورية، والشبيعة الذين لم يجدوا فيه ما يحقق آمالهم. ويعرّج على سقوط الجنرال عون في 1990، مروراً برئاسة رينيه معوض والياس الهرّاوي،

وتحكّم سورية بالرئاسات الثلاث، وهيمنتها على الحياة السياسية اللبنانية. تلي ذلك جداول توضيحية احصائية وغيرها.

بالنسبة للجزء الأول من الكتاب، لن نناقش فيه سوى أسباب الحرب، لأنّ أهمّ ما في دراسة الحروب عادة، هو التوقف عند أسبابها. فبعدما تنطلق الحروب والثورات يسهل متابعة وقائعها، خاصة اليوم، ساعة بساعة. والحرب عندما تندلع تأخذ صفة الحرب التي لا ترتدي سوى طابع دموي يرتقي من خلاله الهامشيون والفاشلون إلى سطح الأحداث، ويقود الحدث عادة كلّ من هم دون المستوى على الدرجات العقلية. أمّا المميزون والناهبون فيصبح حالهم كحال الفيلسوف في البلدة التي كان نبعها موبوءاً بمرض الجنون، بحيث جنّ الناس فيها، فلم يجد الفيلسوف مندوحة سوى الشرب من هذا الماء والمشاركة بالجنون. أمّا السرّ في دراسة الحرب فيمكن في أسبابها وظروفها، وهذا قد يتطلب وقتاً طويلاً لكشف المستور منها.

بكل الأحوال، أخذ الدكتور سنوّ بكل ما قيل عن أسباب الحرب، وهو عادة ما صرّح به المتخاصمون، ومن يركون بأصابعهم جماعاتهم في لبنان، ملقّين السبب طبعاً على الطرف الآخر، ولكل طرف كان سببه يتغطى وراءه، مبرراً إقدامه على خوض غمار الحرب بتحليل من منظاره للواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والديمقراطي والنظمي وحتى على مستوى نظام القيم. حسناً فعل سنوّ بالتوقف عند كلّ الفئات المشاركة في الحرب واستنطاق أسبابها الداخلية من دون التغطية على العامل الفلسطيني، وتقصي الأسباب الإقليمية لها خاصة عبر العامل السوري المستفيد الأول من هذه الحرب، وطبعاً العامل الإسرائيلي، والأسباب العالمية عبر لعبة الأمم. ولكن في تصنيفه للمشاركين فيها يقم أحياناً جمعيات لم يُشارك في الحرب منها إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد، ولجان تضمّ بعض الأساتذة في الجماعة المذكورة ومن خارجها.

وأعتقد أن المقاربة الموضوعية للدكتور سنوّ أخذت كافة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والثقافية والنظمية بعين الاعتبار، وقد أصاب في استنتاجه أنّ التجارب التاريخية للطوائف وطبيعة النظام ومسائل الهوية والمشاركة والفوارق الاجتماعية الاقتصادية والخصوصيات المتنوعة هي عوامل مسببة للتوتر لا السبب الرئيس لاندلاع القتال. ونحن نعتقد أنّ هذه الأسباب قد تؤدي إلى نزاع اجتماعي فيما لو كان لبنان كباقي الأوطان، الانقسام فيه اجتماعياً.

في نظرنا، أبعد من كلّ هذه الأسباب، على وجاهتها، أساس الحرب جوهر تكوين لبنان الذي كان قائماً على ازدواجية شرخ وجودي بين غالبية أتباع جماعتين مع ملحقاتهما المذهبية من ملل ونحل، واليوم شرخ ثلاثي بعدما انشقت إحدى المجموعات إلى جزئين يستحضران عداوة عمرها 1500 سنة. شرخ سببه كون الدين على سموه يفرض على غالبية أبنائه ممارسات يومية متباينة وسلّم قيم غير متجانس. والواعون والمتعاطون بعقلانية مع هذا الإنتماء في كلا الطرفين قلّة. هذا الشرخ لم تقو على حله أية منظومة علمانية أو اشتراكية أو قومية أو وطنية أو أممية، لأنّ القائلين بها كانوا يمارسون ازدواجية مستترة تشبه الانفصام في الشخصية. فالحرب الحالية، كما حروب القرن التاسع عشر، مردّها إلى اختلال في التوازن الديمغرافي معطوفاً على إختلال بالتوازن الاقتصادي وبالتالي الاجتماعي الثقافي. فكما شعرت جماعة من الجماعات المكوّنة للبنان أنّها ديمغرافياً تقارب الجماعة الأخرى إندلعت ثورة أو فتنة، وكلمًا شعرت أنّها تجاوزت النصف، لربما، أعلنت حرباً يجابهها الفريق الآخر بردّ فعل دموي. وطالما لم يتوصّل اللبنانيون إلى صيغة عقلانية تولد نظماً متطورة، فيها أحوال شخصية متجانسة وقيم عقلانية تقصّل بين الإيمان بالله، من دون إكراه، وبين الممارسة اليومية المتجانسة، وحتى تسمح لغير المؤمنين بممارسة قناعاتهم من دون إكراه، فلبنان يبقى على حافة بركان، كلما اهتزّت المعادلات الديمغرافية مصحوبة بتبدّل المعادلات الاقتصادية وبالتالي الثقافية والاجتماعية.

في دراسته لدور الفعاليات الدينية أغفل عدم تحفّظ إحدى المرجعيات، أسوة ببيكركي تجاه الحرب،

وتأييده بشدة الفلسطينيين حدّ اعتبارهم جيش المسلمين وتحوّله رأس حربة في مسألة عزل الفريق الآخر، مما سمح بتقوية هذا الفريق في صفوف الجماعة التي ينتمي إليها بشكل كاسح. لو كان الانقسام في لبنان اجتماعياً لما كان ثمة حيّز للعامل الخارجي الإقليمي والعالمي فيه. ولكن هذا الشرخ الوجودي هو أفضل بؤرة تعشش فيها أدوات المتجانسين مع الخارج مع الداخل. لبّ الصراع، كان مسألة المشاركة، ولكن قصر النظر لدى الطرفين، لا عند طرف واحد، جعل البركان يشتعل. فولاية رئيس مغلق الذهنية كانت قرب نهايتها، والمشاركة كانت ستتحقق، عاجلاً لا آجلاً، مع تنامي وجود نخب واعية عند الشباب المسيحي. وإذ يفاجئ الجميع أنّ البندقية الفلسطينية تصبح مطية المشاركة، وعقد بعض السياسيين، يقابلها تعنّت حفنة من القادة من ليس في منطقتهم سوى التعتت.

وبعكس دول أخرى في المنطقة، تتوافر فيها عناصر التوحيد في الايديولوجيا والمجتمع والدين، يجد د. سنوّ أن لبنان مجتمع منقسم على نفسه في ظلّ نظام يفرّق ولا يجمع، وايديولوجيا متنافرة، وما إلى غير ذلك مما جعل جغرافيته السياسية عالية عليه، ومدخلاً لتدخل الأعداء والأشقاء والأصدقاء منذ القرن التاسع عشر، وحتى اليوم. وكان القدر الأسود له بالمرصاد لحظة وصول التآزم الداخلي فيه إلى الذروة، مع نموّ المقاومة الفلسطينية على أرضه، واستتباب الحرب الباردة، وانفجار الصراع العربي - الإسرائيلي، وحلم الرئيس حافظ الأسد الإمساك بورقة الشرق الأوسط من موقع قوة يحسب لها حساب.

وبجرائته المعهودة يذكر سنوّ أنّ هذا ما حدا بالمنظمات الفلسطينية في نضالها ضدّ إسرائيل، وتنازرها مع بعض الأنظمة العربية، إلى تحويل لبنان إلى قاعدة عسكرية وسياسية مسلوقة الإرادة، مع فقدان الأمل باستغلال أراض عربية أخرى أرضية لهذا الصراع. وشاءت الظروف أنّ حلم ما اصطلح على تسميته بـ«اليساريين» و«الحركة الوطنية» بقلب النظام متكتنين على الفلسطينيين فتح الباب على مصرعيه أمام الفلسطينيين في تعجيل انفجار لبنان، من دون أن يسأل هذا الفريق نفسه عن كيفية تحقيق حلمه في ظلّ الدويلة الفلسطينية. أمّا إسرائيل العاملة على اجتثاث حركة المقاومة الفلسطينية، فقد استعملت كلّ الوسائل المتاحة لها لحماية نفسها بما في ذلك تفتيت لبنان، ودفع بعض قادة الموارنة ليكونوا رأس حربة في هذا المضمار. وبالجرأة نفسها يستخلص أنّ سورية قد استخدمت ذرائع القومية، وسورية الكبرى، والمصالح التاريخية والجغرافية، وتهديد أمنها عبر لبنان، وخشيتها من قيام دويلات إحداها موالية لإسرائيل والأخرى موالية للفلسطينيين، وفي كفتي الحالتين فقدان لورقة رابحة سياسياً وتسمح بكافة الابتزازات الاقتصادية من جهة أخرى، للإمساك بالملفين اللبناني والفلسطيني وعدم السماح بنجاح أية مبادرة للحلّ، إلاّ بواسطتها، وبما يؤمن مصالحها السياسية والاقتصادية في لبنان.

وموقع لبنان في قلب الصراع العربي - الإسرائيلي جعله ساحة لتنافس الجبارين. هذا الرصد الموفق للأبعاد الإقليمية والدولية يضيف طابع النظرة الشمولية والأفق البعيد المدى في تحليل عبد الرؤوف سنوّ.

من السياسة ينتقل سنوّ في الجزء الثاني إلى الاقتصاد والمجتمع والثقافة، فيدرس اللامركزية الاقتصادية التي نجمت عن الحرب وأدت إلى انشطار الاقتصاد المركزي ونموّ الأسواق في الضواحي والمحافظات، وتأسيس الفروع المصرفية. كما يدرس كيفية تكيف المصارف والصيرفة والسياحة مع الأوضاع الأمنية، وقيام الجدار الإسرائيلي الاقتصادي على الحدود الجنوبية من لبنان وازدهار المرافئ غير الشرعية التي ألحقت خسائر جمة بخزينة الدولة، والانشطار المناطقي بخلق خطوط تماس ومعايير إذلال. وانشطار الإدارة والإعلام الرسمي اللبناني وتعطلهما مفسحين المجال أمام تنامي الإدارات ووسائل الاعلام المليثوي والطائفي والمناطقية وفساد الإدارة الرسمية. ويتقصّى الكاتب الاقتصاد في دوامة الحرب متوقفاً أمام جرمة الخسائر البشرية الكارثية، بالقياس

إلى حجم لبنان، والخسائر الاقتصادية وتدهور الوضع المالي وانهياره، وانهيار مالية الدولة، وتراجع وضع الزراعة والصناعة والتجارة. ويحل مسألة التضخم وتكثيف اللبنانيين مع الخدمات العامة والخاصة. ويخلص إلى أن الحرب أدت إلى تباطؤ النشاط الاقتصادي وتراجع الناتج المحلي ونمو معدلات التضخم وتراجع سعر صرف العملة الوطنية وقوتها الشرائية، واستيلاء المليشيات على موارد الدولة وفقدان الحسّ الوطني اقتصادياً مع زيادة الاحتكار والمضاربة بالعملة. ويدخل إلى صميم الحياة الاجتماعية عبر دراسة أثر الحرب في الأسرة وعلى الأولاد، كما أثرت على علاقات الزواج وسنّ الزواج والطلاق، وأثر الحرب على الثقافة والإعلام غير الشرعي. وأثرها في نوعية ما يكتب بحيث عمل الكثيرون على احياء عقد الماضي ويخصص فصلاً لانهيار التعليم ومستواه على كلّ الصعيد، وكيفية اندفاع بعض الجمعيات ومنها مؤسسة الحريري للتعويض والحرب على الجهل. ويدرس مسألة الهجرة والتهجير وتفاقمها ومسؤولية التهجير في الهجرة. الفصلان الأخيران مكرسان لمسألة المليشيات من فلسطينية ولبنانية وعلاقتها بالمجتمع وقرصنتها للاقتصاد والإدارة ولأنشطتها الاجتماعية وإدراتها المدنية. وبمواجهة هذه المليشيات يدرس كيفية قيام مؤسسات ذات منفعة عامة كالصليب الأحمر ومجلس كنائس الشرق الأوسط وجمعية كاريتاس والدفاع المدني الرسمي والخاص المقاصدي والحركة الانمائية والجهة الموحدة لرأس بيروت ومؤسسة عامل ومنظمات الأمم المتحدة بلسمة جراح اللبنانيين. أعتقد انه يوجد ثمة إجماع بين الباحثين على النتائج الاقتصادية والبشرية والاجتماعية والثقافية والتربوية بعكس العوامل السياسية.

يقدم سنو «بانورما» تحليلية موثقة وواضحة لحرب لبنان، متقصياً حقائقها ووقائعها من خلال وثائق غير منشورة وأخرى منشورة ودراسات بلغات عدة. يصعب تقييم كتاب بهذا الحجم، ويشكل مادة «عويصة»، كموضوع حرب لبنان في صفحات قليلة. إظهار حسناته الجمّة، وحتى مناقشة، لا إنتقاد الكتاب، تقتضي فصولاً طويلاً. ومع هذا سنشير إلى بعض ملامح أهمية الكتاب:

- الكتاب ليس مجرد دراسة استعراضية متسرفة أو إطلالة وصفية أو تحليلية لموضوع من مواضيع الحرب اللبنانية، بل دراسة أكاديمية تراعي شروط الكتابة المنهجية، علمية، موثقة خير توثيق. فقد استطاع سنو الإحاطة شبه الكاملة بما تيسر من مراجع الدراسة من لغات مختلفة.
 - الموقف المحايد والموضوعي، والإحاطة المرگزة الجيدة بمواقف الأطراف كافة، بكلّ جزئياتها، والجرأة في دقّ باب ما كان محظوراً قوله عن دور بعض الأطراف الضالعة والموجهة للحرب.
 - الانتماء الواعي والعقلاني إلى وطن يريد له كلّ الخير. من دون حبّ قاتل، أو تنكّر له غير عاقل، قاد إلى ما قاد إليه من شلالات دم.
 - الدراسة غنيّة بكلّ أنواع الاحصاءات واللوحات البيانية والاستنتاجات.
- هذا الكتاب، سفر من أسفار الحرب اللبنانية، وقراءة على ضوء المعطيات الراهنة عنها. وعندما تنكشف غالبية أوراق هذه الحرب، ووثائقها السريّة، تتوضح الصورة، ويكون ما بذله عبد الرؤوف سنو من جهد واع، عنصراً رئيساً في رسم صورتها السوداء.

[عبد الرؤوف سنو «حرب لبنان (1975-1990)»، «تفكك الدولة وتصدّع المجتمع»، مجلدان: المجلد الأول، مفارقات السياسة والنزاعات المسلحة والتسوية. المجلد الثاني، التحوّلات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية/ الدار العربية للعلوم ناشرون/ بيروت 2008

**كتاب نقولا زيادة: انطباعات من الذاكرة في أول يوم في السنة 2006 (باسكال: هذا ما دونه
نقولا زيادة في مذكراته قبل صدور كتابي)**

تلقيت اليوم محادثات تلفونية كثيرة لمناسبة رأس السنة.

أمس ليلة رأس السنة كان عندي الدكتور عبد الرؤوف سنو وزوجته والدكتور أحمد حطيط وزوجته وهما من الأصدقاء الخالص. قضينا أمسية لطيفة كان فيها تذكر أمور كثيرة. سألت الدكتور سنو فيما إذا كان يعمل على كتاب يقطع النظر عن المقالات العلمية التي ينشرها. قال نعم إنه يعدّ كتاباً عن الحرب في لبنان سنة 1972-1991. سألته هل يكتب كتاباً يتميز عما كتب من قبل حول هذا الموضوع؟ إذا كان يضيف كتاباً عادياً فليس هذا الأمر مما يجب أن ينفق طاقته وجهده فيه. قال لا أنا أريد أن أكتب تاريخاً لهذه الفترة لا من حيث الأحداث والقتال وخسائر النفوس والقتل على الهوية. أريد أن أبحث في جذور المسألة. في المجتمع اللبناني الذي كان يقوم في أواخر الستينات من القرن الماضي والذي وقع في هذه المشكلة. أريد أن أدرس الشؤون الاقتصادية أريد أن أدرس ما كان عندنا من جامعات قائمة وماذا كان أثرها في ذلك. وأريد أن أتناول الأدب الذي قيل وكتب ونشر شعراً ونثراً قبل الحرب وأثناء الحرب. قلت له هذه دراسة قيّمة ولا تسرع فيها ولا تتباطئ أريد أن أقرأها قبل أن أموت! لكن لا تسرع لأن العناصر التي تريد أن تتحدث عنها عناصر مهمة جداً لعل الكثيرين لم ينتبهوا إليها.

لما خرجوا من عندي حول الساعة الحادية عشر تمنيت له النجاح وأنا أعرف أنه قادر على أن يضع كتاباً من هذا النوع

النصار

23579 العدد - 76 السنة - 2009 كانون الثاني 12 الاثني

كتاب "حرب لبنان" لعبد الرؤوف سنو ندوة عنه ومناقشة مضمونه في الاونيسكو

اقيمت مساء الجمعة في الاونيسكو ندوة، لمناقشة كتاب "حرب لبنان 1975 – 1990" للدكتور عبد الرؤوف سنو، شارك فيها الدكاترة بطرس لبكي وابراهيم مارون وعدنان السيد حسين وادارها الدكتور نادر سراج، في حضور النائب عمار حوري وجمع من الشخصيات السياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية. استهلّت الندوة بكلمة للدكتور سراج، اشار فيها الى "ان المؤلف انصرف في دراسته الى الواقع

اللبناني على كل الصعد خلال الحرب، وتناول التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمصرفية، وبسط تكيف المواطنين مع الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، متناولاً الاسرة اللبنانية وانعكاس الحرب على ثقافتها وقيمتها والانهيئات التي طولت قطاع التعليم والهجرة وتفكك الدولة وتقويض المجتمع".

واضاف: "لا يحسد الزميل والاستاذ الجامعي عبد الرؤوف سنو على المهنة البحثية شبه المستحيلة التي ندب لها نفسه. وما هو يقدم عصاراتها الى قراء العربية في 1808 صفحات تتوزع على مجلدين. فافلح في تجاوز الحساسيات المتوقعة، وترفع عن الغوص في زوايب السياسة اللبنانية متسلحاً بمنهجية علمية.

ولم يكتف بالتجميع والتصنيف والسرد بل نقب في سطور الكراسات ومتون الوثائق واستقرأ ارقام الاحصاءات بعين المؤرخ الراصد والمحلل، وتكلم عن المجلدات لينتقل الى المجلد الثاني الذي يتناول الشق الاقتصادي وقال: "انصرف المؤلف في المجلد الثاني الى معالجة موضوع التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية، فدرس اللامركزية الاقتصادية والانتشار المناطقي بمختلف وجوهه وتداعياته وواقع الاقتصاد اللبناني.

ثم تحدث الدكتور لبكي، فاشار الى "غنى الكتاب بالمصادر واختلافها من حيث الكتب والمقالات والمذكرات، ومن حيث تغطية الكتاب للاحزاب اللبنانية بشكل موضوعي علمي، وتشديد على تغطية النشاطات والاطراف المختلفة في المدن وخصوصاً في بيروت"، لافتاً الى "عدم شمولية هذه التغطية لكل المناطق اللبنانية وخصوصاً للاطراف والارياف، وهذه نقطة كان يجب على الكاتب ان يشملها لان للحرب انعكاسات على الاطراف بشكل كبير ايضاً".

اما الدكتور مارون فتناول الشق الاجتماعي وقال: "هذا الكتاب لا يقل عن 28 مؤشراً اجتماعياً، منها: القدرة الشرائية للمداخيل، موازنة الاسرة، النظام الغذائي، معدل الاستدانة للاسر، الدخل المتوسط للافراد والاسر والانفاق على الصحة، وتمت تغطية هذه المؤشرات بكم هائل من المعطيات الاحصائية التي يبدأ معظمها في الخمسينات من القرن الماضي وينتهي في التسعينات".

اضاف: "لقد تمت تغطية هذا الكتاب بتسعة ميادين في علم الاجتماع، مقارنة موضوعية وحيادية طائفاً ومذهبياً في معالجة مواضيع الحرب اللبنانية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية"، لافتاً الى "ان هذه الامور ساهمت في سد فراغ في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للبنان".

ثم كانت كلمة للدكتور عدنان السيد حسين، قال فيها: "انطلق المؤلف من فرضيات عدة اهمها ان التعايش الطائفي وصل الى طريق مسدود والحرب تنفجر بسبب خلافات اللبنانيين حول دور لبنان في الصراع العربي - الاسرائيلي، وغياب دور الدولة قضي على البنى التعليمية والثقافة، وعقلية الميليشيات ادت الى تفكك هذه الدولة الضعيفة أصلاً. يمكن ان يناقش الباحث مضمون الكتاب في هذه النقطة او تلك، الا ان اهميته تكمن في تركيزه على العوامل الداخلية والخارجية معاً، التي تسببت بالحرب ولا تزال تتفاعل بآثارها الى يومنا هذا. فمن الخلاف على هوية لبنان والامتيازات المارونية في النظام السياسي، ومطالبة المسلمين بالمشاركة في السلطة والانماء المتوازن (عوامل داخلية)، الى العامل الاسرائيلي والتفاعل الصراعى بين سوريا واسرائيل بالتزامن مع الوجود المسلح الفلسطيني في لبنان والنزاعات العربية - العربية في مرحلة الحرب الباردة (عوامل خارجية)، كلها اشارات مهمة الى تعقيدات ما اصطلح على تسميته الازمة اللبنانية".

تلا ذلك حفل توقيع الكتاب

التاريخ الاجتماعي للمدن المنكوبة ... بيروت نموذجاً

نادر سراج

قراءة لكتاب

حرب لبنان: تفكك الدولة وتصدع المجتمع 1975 - 1990

تأليف د. عبد الرؤوف سنو

المجتمعات المدنية في عالم العروبة والإسلام مجتمعات عريقة؛ لها تقاليد وأعرافها وأساليب تنظيمها لحياتها الخاصة والعامة. وبيروت مدينة عريقة، ومجتمعها مجتمع عريق. وللعراق كما قلت تقاليد وأعراف بارزة في بيروت. وقد اضطرت هذه الأعراف أو ضعفت انتظامها في سنوات الحرب والفتنة. لكن كانت هناك بعض الوجوه الإيجابية لتلك التجربة الجديدة على بيروت في أجيالها الأخيرة. فقد اضطرت للعيش أحياناً بدون سلطات مدنية ومحلية مسؤولة؛ مفتقدة لأدنى وسائل التنظيم والخدمات، فما استنكف مجتمعها المتمثل في قوى الشباب الحي عن القيام بواجباته تجاه نفسه ومدينته ومجتمعه. قامت شتى أنواع الحركات والهيئات واللجان الشعبية لتعويض الافتقار إلى خدمات المؤسسات الرسمية، وإن بقي الأمر في حدود متواضعة، ولم يتعد أحياناً كثيرة تخوم مناطق "الإدارات المدنية" أو المحميات السياسية.

نستسهل بهذه الأفكار لا للتذكير بتجربة الحرب الأهلية القاسية، بل لاستحضار التجربة الشعبية الخدمية خلال الحرب، واستعادة تقاليد المدينة في تأمين خدماتها وتنظيم سبل معاشها. هذه التجربة الخدمية الناجحة إلى حد كبير، وذات الأوجه الاجتماعية والإنسانية، يتيح لنا كتاب الزميل الدكتور عبد الرؤوف سنو، الكلام عنها باعتبارها فصلاً أساسياً من فصول مؤلفه المميز **حرب لبنان: تفكك الدولة وتصدع المجتمع 1975 - 1990** الذي عني بتاريخ حرب لبنان؛ سارداً الوقائع وذاكراً التفاصيل ومستخلصاً العبر، علنا نعي ونستخلص ونعتبر.

لا يُحسد الزميل والأستاذ الجامعي د. عبد الرؤوف سنو على المهمة البحثية، شبه المستحيلة، التي ندب لها نفسه وأنجزها على مدى سنوات عشر. وها هو يقدم عصارته إلى قراء العربية في 1808 صفحات تتوزع على مجلدين وتتنظم في ستة عشر فصلاً.

والحق يُقال، فتحقيب مراحل الحرب الأهلية اللبنانية (1975 - 1989) في مختلف وجوها وتداعياتها، والتقيب عن حفريات ومقاصد القائمين بها من ميليشيات وقوى أمر واقع، وإمطة اللثام، وبالأحرى الغبار، عن الأرشيفات والوثائق الحبيسة الأدرج، دونه عقبات كأداء ومصاعب إدارية وعملانية وحتى إيديولوجية. لكن صاحب "حرب لبنان" أفلح في مسعاه البحثي هذا متجاوزاً الحساسيات المتوقعة، ومترفعاً عن الغوص في زوايب السياسة اللبنانية ودهاليزها،

متسلحاً بمنهجية علمية وحسّ نقدي ودربة في العمل البحثي التاريخي أهله لها تحصيله العلمي المستدام في جامعات ألمانيا.

سيتولى الزملاء الكرام مقاربة المحاور الأساسية، كلّ حسب اختصاصه ومجال عمله، ووفق رؤيته للمسائل المثارة ولطريقة معالجتها واستقراء نتائجها من قبل مؤرخ فترة عصية، وعصيبة، ومفصلية، من تاريخنا المعاصر. فترة لا نزال، لتاريخه، نعاني منها فصولاً، ولم يدراً ذبولها المتناسلة لا طائفٌ ولا دوحة ولا جلسات حوار! وسأبدأ كلمتي باستعراض العناوين الرئيسية في المجلد الثاني لأتوقف بعدها عند مشهد "مقاومة المجتمع المدني للميليشيات" الذي كنت "شاهداً (من أهله) على أحد فصوله، وناشطاً في إحدى تحركاته المفصلية.

أنصرف المؤلف في المجلد الثاني إلى معالجة موضوع التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية بشكل موثق ورصين ومسهب. لذا حفلت الفصول الثمانية بمواضيع حيوية تناولت مختلف انعكاسات حرب لبنان على الصعد المؤسساتية والإنسانية والقيمية. فدرس في الفصل التاسع اللامركزية الاقتصادية والانشطار بمختلف وجوهه وتداعياته (897-981). وخصص الفصل العاشر لقراءة واقع الاقتصاد اللبناني في دوامة الحرب (993-1056). أما في الفصل الحادي عشر فقد بسط لنا سيرورات تكيف المواطنين مع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية الطارئة على إيقاعات حياتهم (1073-1114). وتناول الأسرة اللبنانية وانعكاس آثار الحرب على ثقافتها وقيمها في الفصل الثاني عشر (1121-1185). ولاحظ أن الانهيارات لم تقتصر على الأسرة، أفراداً وقيماً وسلوكيات، بل تعدتها إلى قطاع التعليم الذي شكل محور الفصل الثالث عشر (1201-1238). فأسهب في توصيف أوضاعه ومرآحله وتمثل على المبادرات المضيفة للحرب على الجهل (الجمعية الإسلامية ومؤسسة الحريري). الهجرة والتهجير التي تناسلت فصولاً وأفضت إلى وقائع ديموغرافية مستجدة، شكلت إحدى مشاغل المؤلف، فخصّها بالفصل الرابع عشر (1245-1348). ونصل إلى الإرهافات التي جرى الحديث عنها في الفصول الستة السابقة وكانت الأصدق إنباءً، فتفكيك الدولة وتقويض المجتمع على أيدي الميليشيات أوتي ثماره. لذا تظهر "مآثره" بجلاء في الفصل الخامس عشر (1365-1505). وفي مقابل هذا التدهور البنيوي الحادث، شاء المؤلف أن يكون مسك الختام مبادرات المجتمع المدني، على اختلاف منطلقاتها، لدرء الفتنة وإدارة الحياة المدنية في الأحياء والقرى والمدن. فأفرد لها الفصل السادس عشر (1533-1657).

بيد أن تحرك الهيئات الأهلية لم ينحصر فقط في مجالات العمل الخدماتي المحض، بل عبّر في إحدى أشكاله عن النزوع إلى مقاومة المجتمع المدني تنامي نفوذ الميليشيات (1453-1461). لذا يعود بنا المؤلف إلى بؤر هذه المقاومة التي بدأت في حزيران 1975، وعرفت خطوات متواضعة في تموز 1979 وخلال العامين 1981 و1982. ويتوقف ملياً عند دعوة إيمان خليفة المجتمع المدني في 12 نيسان 1984 إلى الانتفاض على الميليشيات والمطالبة بالدولة، الأمر الذي حولها من حادقة أطفال إلى داعية للسلام. نداؤها الأول الذي وقعته مع 34 مواطناً دعت فيه إلى وقف العنف ورفع شعار مؤحد "نعم للسلام، لا للحرب... لا للسنة العاشرة". ويسهب سنو في توصيف الترحيب والتأييد الذي لاقتته هذه الدعوة السلمية من قبل المجتمع المدني والصحافة اللبنانية والعربية والدولية. ولكن الحلم أحمد في مهده، فعشية اليوم المحدد للمسيرة الشعبية، مساء الخامس من أيار 1984، قصفت الميليشيات المتحاربة بعنف منطقة المتحف من الجهتين، وأجهضت خطة

التحرك. ولكنها لم تطفئ جذوة العمل لمواصلة التحرك من أجل السلام. فاستعويض عن المسيرة بتنظيم استفتاء شعبي عارم حمل تواقيع الألف من المواطنين، على ميثاق شرف للسلم الأهلي.

أعودُ إلى مربط الفرس في كلمتي وهو الجانب الاجتماعي والإنساني لهذه الحرب الضروس التي "فككت المجتمع وصدّعت بنيان الدولة"، ولم تبق ولم تذر. أحوالنا الاجتماعية المتأزمة نالت نصيبها من هذه الحرب واستحقت اهتمام الباحث. فأفرد لها فصلاً في مائة صفحة ونيف توزع على ثلاثة أقسام وخلص إلى استنتاج، وأظهر لنا طولَ باع المؤلف في مجال التاريخ الاجتماعي للمدن المنكوبة. لم يكتفِ د. سنو بالتجميع والتصنيف والسرد، بل نقّب في سطور الكراسات ومتون الوثائق، واستقرأ أرقام الإحصاءات، وتوقف عند طبيعة الإنجازات بعين المؤرخ الراصد والمحلل الذي لا يخشى لومة لائم من قول الحقيقة في كلّ ما قرأه وحلله.

مروحة النشاطات الاجتماعية والإنسانية، مشفوعة بفيض اللجان والهيئات والجمعيات الأهلية، أحوته إلى التروي في تدوين معلوماته بعد نخلها واختيار الغث من السمين منها، تمهيداً لإدراجها في سياق مؤلفه. لذا ألحّ في السؤال، واستقصى، وعاد إلى المراجع والصحف والمجلات، حتى الثمالة، وأعاد محاوريه ممن زودوه بمصادر المعلومات إلى فترات أليمة نغّصت صفو عيشهم، وما عرفوا كيف طوّوا صفحاتها منذ سنوات، ولا يستهويهم الكلام عنها مجدداً. لكن تصميمه جعل الصدور تفرج عن مكنوناتها، والغبار يرفع عن أوراق ووثائق قديمة، والألسن تلهج بذكريات مريرة.

وسعى، كما هو دأبه في سائر فصول الكتاب، إلى تجنّب تبعات التحيز أو المحاباة إن في عمله التوثيقي أو في تحليل معطياته وتدبيح فصول كتابه. لذا رأيناه يرصد الهيئات الناشئة والناشطة عهدذاك، على اختلاف توجهات القائمين بها، كالإدارات الحزبية ومؤسسات المجتمع المدني والهيئات الدولية. وأظهر لقارئيه أن تجربة العمل الاجتماعي في أوقات الأزمات – بغض النظر عن خلفية القائمين بها أو قصديتهم – مثالٌ عملي ومحسوس لإمكانية تساوq الإيرادات الحية والإمكانات المتواضعة في عمل خدماتي ذي منفعة عامة يلتزم بخدمة الناس معتمداً لذلك روحية العمل التطوعي والتحرر من وطأة الروتين الإداري. وعملاً بمقولة "الطريق إلى جهنم مزروعة بالنوايا الحسنة" لا يفوته أن يلاحظ الصفة المزدوجة لعمل الهيئات المحلية أو الشعبية التي أفادت بشكل غير مباشر من غياب الدولة وأجهزتها. فهو يذكر أن إيجابياتها تمثلت في أنها نظمت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وامتصت النغمة الشعبية. ولكنها في المقابل أقامت سلطة سياسية بديلة من الدولة ومؤسساتها وأجهزتها الإدارية من قبل بعض الميليشيات ذات الأهداف التقسيمية (ص. 1533) كما لم يفته أن يشير إلى أن هذه "الإدارات المدنية" أتاحت لمنشئها إهداء مرجعية في الشأنين الاجتماعي والخدمي.

وقد أظهرت الوقائع المجموعة بتؤدّة وأناة ودقة منهجية أن هذه الأنشطة الاجتماعية والإنسانية التي نشأت من لدن الأفراد والجماعات والجمعيات، وتطورت وتيرة أعمالها، واتسعت رقعة خدماتها، اكتسبت ثقة الناس الذين خلقت بين ظهرانيهم، فاحتضنوها، وتطوعوا في صفوفها، وأفادوا من تقديماتها. وبغض النظر عن نوايا الجهات الحزبية القائمة بأمر هذه الخدمات، فمجمال الأعمال الإغاثية التي ظهرت وتوطدت على أيدي شبان متطوعين، لم تسع لتكون بديلاً عن أجهزة الدولة المناط بها توفير الخدمات اليومية.

أهمية الفصل السادس عشر من كتاب "حرب لبنان: تفكك الدولة وتصدع المجتمع 1975 - 1990" في أنه روى لنا بالكلمات والوقائع والأرقام المستندة إلى إحصائيات كيف نشطت جمعيات وهيئات ومنظمات لحمل هموم المواطنين اليومية، بعدما شلت الإدارات الرسمية أو تقاعست عن أداء وظائفها أو غيّبت عن لعب أدوارها لسبب أو لآخر في نفس يعقوب أو بالأحرى "يعاقبة الحرب" وما كان أكثرهم!

وبحرفية الباحث المتمق الذي وضع نصب عينيه البحث عن الحقيقة، واستقراء الوقائع، وتحليل المعطيات المجموعة، يقسم سنو أنشطة الهيئات والإدارات الميليشيائية وفق التوزيع المناطق / الجغرافي، أي الإدارات المدنية في المناطق المسيحية (حزب الكتائب، القوات اللبنانية، المردة، الشريط الحدودي المحتل) ومن ثم يفصل الإدارات المدنية الحزبية في المناطق الإسلامية مع توصيف دقيق لتوجه كل منها مثل (الحركة الوطنية والإدارة المدنية في بيروت الغربية: مشروع مستعص، الإدارة المدنية في الجبل: مشروع كانتون؟ ولا يفوته ذكر حركة أمل ذات الأنشطة الاجتماعية وحزب الله الذي يذكر أنه استمد شرعية أخرى من خلال العمل الإنساني - الاجتماعي). ومن ثم يعالج مؤسسات المجتمع المدني وهيئاته وينتقل بعدها إلى قسم المنظمات الإنسانية الدولية.

ولكن العامل الأهم الذي استوقفه في المشهد الاجتماعي الإنساني في المناطق اللبنانية هو دينامية التحرك الشعبي والمؤسسي التي شهدتها تلك المناطق من قبل مؤسسات المجتمع المدني وهيئاته التي استنفرت طاقاتها وعبأت قطاعات من الشباب والشابات لتنظيم سبل الحياة اليومية. ويتوقف الكاتب عند ثمانية نماذج أو تجارب معاشة منها ما هو مؤسسي قائم (الصليب الأحمر اللبناني، مجلس كنائس الشرق الأوسط، كاريتاس لبنان) ومنها ما أوجدته الأحداث وكان طابعه قطاعي تنظيمي (جهاز المتطوعين في الدفاع المدني، الدفاع المدني المقاصدي) أو مناطقي (الحركة الإنمائية، الجبهة الموحدة لرأس بيروت، مؤسسة عامل). والجزء الثالث والأخير خصصه للمنظمات الإنسانية الدولية التي استنفرت أجهزتها وزادت من وتيرة عملها لتلبية الاحتياجات الطارئة (اللجنة الدولية للصليب الأحمر، منظمة اليونيسيف).

أما ما بقي واستمر من هذه التشكيلات التي نشطت خلال مختلف مراحل الحرب، فأمر ثان توقف عنده المؤلف نظراً لوضوح منطلقاتها وجدية نشاطاتها وشفافيتها فضلاً عن قيامها بإعادة تقويم التجربة ومأسسة عملها، تمهيداً للتلاؤم مع متطلبات المستقبل.

يطول بنا الحديث عن هذا الجانب الاجتماعي الإنساني من الحرب الأهلية الذي عشنا فصوله المتناسلة، وكنا لفترات من "أبطاله"، واكتوينا بنار خدماته المفقدة، واطمأنت قلوبنا لسواعد الخير التي انتظمت، في إطاره، لدرء ذيول الأوضاع المعيشية المتردية. وكأنما المؤلف يقول لنا في استنتاج غير مكتوب: "هذا ما خيرتم وذاقتم" فهلا ارتويتهم وارعويتهم واتعظتم، أم تريدون إعادة الكرة!

اللقاء، الجمعة، كانون الثاني 30 2009 الموافق 4 صفر 1430

ندوة تناقش كتاب **حرب لبنان 1975 - 1990**

منهج رصد وحلّ أزمات الحرب وأحداثها ونتائجها



نظّم النادي اللبناني للكتاب، ندوة لمناقشة كتاب **حرب لبنان 1975 - 1990**، للدكتور عبد الرؤوف سنو، في مسرح راهبات المحبة - الأشرفية، برعاية بلدية بيروت وبحضور النائب غسان مخيبر، ممثل رئيس مجلس بلدية بيروت المحامي رشيد جليخ، وعدد من المثقفين. في بداية الندوة، أكد جليخ على إهتمام البلدية بالتظاهرات الثقافية والفنية. كما شكر النادي اللبناني لوصفه هذه الندوة برعاية بلدية بيروت التي اعتبرها العاصمة التي عاشت الحبر والدم في آن واحد.

وشدّد جليخ على الحرص والإيمان بالثقافة اللبنانية المميزة وفي نهاية كلمته، قدّم بإسم بلدية بيروت درع شعار مدينة بيروت، إلى الأب مارون عطاالله وميشال مميكي، كعربون شكر وتقدير. من جهته، اعتبر ميشال مميكي أن الموسوعة **حرب لبنان 1975 - 1990**، هي بمثابة إنجاز غني حافل بالمعطيات، الوقائع، الأرقام، الإحصائيات والخطوط البيانية مؤكداً أن العمل علمي ويتسم بالحياد العقلاني في موضوع شائك وحساس.

كما قدّم مميكي العمل الموسوعي حيث قال: **«يتناول المجلد الأول مفارقات السياسة، النزاعات المسلحة والتسوية، ويعالجها المؤلف في فصول سبعة.»**

بدأها بعرض العوامل الداخلية التي فجرت الحرب من تركيبة النظام الطائفي في لبنان، إلى بنية الأحزاب والطبقات الإجتماعية، ثم إنتقل إلى عرض العوامل الخارجية ومصالح الدول الإقليمية والدولية.

أما عن الجزء الثاني من هذه الموسوعة، الذي يحمل عنوان: **«التحولات في البنى الاقتصادية والإجتماعية والمصرفية»**، فقال مميكي: **«يضيء هذا الجزء على اللامركزية الاقتصادية، الإنشطار المناطقي، الإداري والإعلامي، ثم يقدم حالة الإقتصاد اللبناني برمته خلال فترة**

الحرب، كما يفرد فصلاً كاملاً لدراسة آثار الحرب على الأسرة اللبنانية، في الثقافة، القيم، إنهيار التعليم وظاهرة الميليشيات ودورها في تفويض المجتمع.

وختم ممكي حديثه، مؤكداً أن إختيار هذا العمل المرجعي كمادة بحثية للمنتدى الثالث في النادي اللبناني للكتاب، ليس تمجيداً بل لبناء السلام.

بدوره، اعتبر المؤلف د. سنو أن هذا الكتاب هو موجز لتاريخ حرب لبنان، ويشكل أساساً صالحاً لتأريخ هذه المرحلة. وعرض النتائج التي توصل لها هذا الكتاب، فكانت على الشكل التالي:

1 - القيادات التقليدية المارونية والإسلامية نعت بُعيد إندلاع الحرب صيغة الميثاق الوطني، الأولون للإنتقال إلى الفيدرالية أو التقسيم، والآخرين لإقامة نظام جديد يمسون بموجبه بالسلطة.

2 - إن حرب لبنان تفجرت حول دور لبنان في الصراع العربي - الإسرائيلي والوجود العسكري الفلسطيني، وعلاقة ذلك بهوية لبنان، وليس بسبب المسائل الإقتصادية والإقتصادية.

3 - إن اللبنانيين لم يتمكنوا، بسبب ثقل الطائفية السياسية عليهم من صياغة إستراتيجية تأخذ في الإعتبار جغرافية بلدهم السياسية.

4 - إن ضعف الدولة اللبنانية من جهة، وتضخم مصالح الميليشيات الإقتصادية وهيمنتها على المجتمع اللبناني من جهة أخرى، جعل الميليشيات المختلفة المرجعية السياسية والخدماتية والإقتصادية.

5 - لقد أسهم التقاتل في وسط بيروت إلى نشوء لا مركزية تجارية وإقتصادية وظهور إقتصاد طرفي، وبهجرة جزء من رأس المال اللبناني والمؤسسات المالية والمصارف. 6 - بقاء الأسرة اللبنانية صامدة متماسكة رغم تأثرها بالحرب.

7 - إن تغييب دور الدولة من قبل الميليشيات، جعل الحرب تقضي على البنى الثقافية والمعرفية، فتأثر التعليم، السلوكيات العامة وكذلك مضامين القيم الأخلاقية وتعمقت النزعة الفردية.

8 - الميليشيات لم تترك للمجتمع المدني سوى هامش محدود للعمل الإجماعي والإنساني.

9 - إن توافق اللبنانيين على تسوية في الطائف ما كان بفعل إرادتهم الذاتية، بقدر ما كان وليد إرادة عربية ودولية لإغلاق الملف اللبناني.

وفي نهاية حديثه طرح د. سنو أسئلة جوهرية: <كيف يمكن إقامة بناء وطني عبر إلغاء نظام سياسي إجماعي من دون تهميش الطوائف المسيحية وإثارة مخاوفها من هيمنة إسلامية.

من جهته، ركز د. زهير حطب على الفصول الثمانية الواردة في المجلد الثاني، ووصف

الكتاب على أنه مؤلف رائد في التاريخ الإجتماعي.

وأضاف: >يخرج فيه المؤلف عن دور المؤرخ لتتبع الأحداث والوقائع ليبنى أطراً مفاهيمية تفسّر تحرك المجتمع وتطوره تحت تأثير العوامل السياسية والاقتصادية والأمنية.<

ونوّه بجهود د. سنو التي توقّر لكل باحث منجماً غنياً بالمواد والوقائع.

بدوره، قال د. منذر جابر إن هذا الكتاب يترجم >خوف د. سنو أن تضع الدولة في لبنان، ويضع الإستقلال والسلم والأمان الإجتماعيين.<

ووصف الكتاب أن له مفعول العمل التأسيسي لأنه يجعل من الحرب اللبنانية موضوع معرفة علمية.

كما شدّد على حيادية الباحث في هذا العمل، إذ أنه بسط مواقف الأطراف جميعاً، دون تدخّل في غالب الأحيان.

واعتبر د. جابر أن هذا العمل هو خارج النقاش الغيبي، لأن المؤرخ عاد إلى المنقولات الصحفية، التصريحات، البيانات، الكتب والوثائق كمصدر لمعلوماته ولعمله.

لينا فخر الدين تصوير: محمود يوسف

23597 العدد - 76 السنة - 2009 كانون الثاني 30 الجمعة

ندوة عن كتاب "حرب لبنان" لعبد الرؤوف سنو:
خوف من ضياع الدولة والاستقلال والسلم

في إطار احتفالية "بيروت عاصمة عالمية للكتاب 2009"، وبرعاية مجلس بلدية بيروت، أحيا "النادي اللبناني للكتاب" المنتدى الشهري الثالث، في أوديتوريوم دير الآباء اللعازريين في الأشرفية، حيث جرت مناقشة مجلد "حرب لبنان 1975 - 1990، تفكك الدولة وتصدّع المجتمع"، لمؤلفه الدكتور عبد الرؤوف سنو. وشارك في المناقشة الدكتور زهير حطب قارئاً أول والدكتور منذر جابر قارئاً ثانياً، بإدارة ميشال معيكي وحضور المؤلف ووجوه سياسية ثقافية وتربوية ومهتمين، تقدّمهم النائب غسان مخيبر وعضو مجلس بلدية بيروت رشيد الجلاح والأمين العام للنادي الأب مارون عطاالله.

بداية النشيد الوطني، ثم تقديم لمعيكي، تلاه حطب مركزاً على الفصول الثمانية في المجلد الثاني الذي يحمل عنوان "التحويلات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية". وأشار الى ان الكتاب، ولا سيما المجلد الثاني منه، "يخرج فيه المؤلف عن دور المؤرخ لتتبع الاحداث والوثائق

الى تبني أطر مفاهيمية تفسر تحرك المجتمع تحت تأثير العوامل السياسية والاقتصادية والامنية معاً، بعدما كانت الاقتناعات حتى وقت قريب، تؤكد حتمية تأثير العامل الاقتصادي وحده على مسار تطور الاسرة ومستقبلها".

ثم عدد جابر ملاحظاته على الكتاب والكاتب، فاعتبر ان "سنو" يكتب في الحرب اللبنانية وهو يخاف ان تضيق في لبنان الدولة والاستقلال والسلم والأمان الاجتماعيين ومن انكسار مشروع تنصيب سلطة الدولة. ويخاف من ان تغدو هذه السلطة هامشاً وحيزاً ضيقاً لتمرير أوقات ضائعة ما بين استحقاق واستحقاق، ما بين مرحلة ومرحلة. ويخاف من قعود الشرعية او اقعادها". أما سنو فقال ان كتابه "يشكل" أساساً صالحاً لتأريخ مرحلة أليمة من تاريخ الوطن والشعب. المجلد الاول يتناول الجانب السياسي والعوامل التي أدت الى اندلاع الحرب. أما المجلد الثاني، فيدرس التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية ونشوء اللامركزية الاقتصادية والادارية والاعلامية".

ثم تحدث الجليخ فأشار الى ان "بيروت عاصمة الكتاب 2009" تنهيب المناسبة الغالية وتتطلع الى تظاهرات ثقافية وفنية على أنواعها. وأعلن ان الامانة العامة لهذا الحدث المشرف "تتلقى المشاريع والمراجعات والاقتراحات من المثقفين والمهتمين بكل فخر واعتزاز". ويذكر ان المنتدى الرابع من الأمسيات الشهرية سيكون في جونية وسيناقش كتاب "جمهورية فؤاد شهاب"، للصحافي نقولا ناصيف.

ندوة حول كتاب عبد الرؤوف سنو حرب لبنان وتفكك الدولة الأنوار 31 كانون اثنى 2009

في طار احتفالية بيروت عاصمة عالمية للكتاب للعام ٢٠٠٩ وبرعاية مجلس بلدية بيروت، أحيا النادي اللبناني للكتاب المنتدى الشهري الثالث في أوديتوريوم دير الآباء اللعازاريين - الأشرفية حيث جرت مناقشة مجلد حرب لبنان ١٩٧٥ - ١٩٩٠ تفكك الدولة وتصدع المجتمع، لمؤلفه الدكتور عبد الرؤوف سنو.

وتألفت عمدة المناقشة من الدكتور زهير حطب، قارئ أول والدكتور منذر جابر، قارئ ثان بإدارة الاعلامي ميشال معيكي وحضور المؤلف تحوطه وجوه سياسية ثقافية وتربوية ومهتمون، يتقدمهم النائب غسان مخيبر وعضو مجلس بلدية بيروت المحامي رشيد الجليخ وأمين عام النادي اللبناني للكتاب الأب مارون عطالله.

بداية النشيد الوطني اللبناني، ثم كلمة مدير الندوة الاعلامي ميشال معيكي الذي اعتبر كتاب حرب

لبنان انجازاً غنياً حافلاً بالمعطيات والوقائع والأرقام الاحصائية والخطوط البيانية، ما يجعل العمل علمياً ويتسم بالحياد العقلاني في مقارنة موضوع شائك وحساس. في تعريفه كتاب حرب لبنان ١٩٧٥ - ١٩٩٠ ركز د. زهير حطب على الفصول الثمانية الواردة في المجلد الثاني الذي يحمل عنوان التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية وقد وجد في كل فصل بحثاً ينتمي الى حقل معرفي وعلم مختلف. واستخدم المؤلف في مقارنته لمواضيع بحثه المنهج والتقنيات الخاصة بتطبيق العلم نفسه، وقد تنوعت بين الاقتصاد والتربية وعلم السكان والهجرة وتكيف السكان مع الأوضاع الأمنية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة. وأوضح التحولات العميقة التي لحقت بالأسرة اللبنانية كخلفية اجتماعية تجذب المواليد وتنشئهم لتؤمن للمجتمع فرص استمراره وتطوره. وأشار د. حطب الى أن الكتاب، ولا سيما المجلد الثاني منه، يخرج فيه المؤلف عن دور المؤرخ لتتبع الأحداث والوقائع الى تبني أطر مفاهيمية تفسر تحرك المجتمع تحت تأثير العوامل السياسية والاقتصادية والأمنية معاً، بعد أن كانت القناعات، حتى وقت قريب، تؤكد على حتمية تأثير العامل الاقتصادي وحده على مسار تطور الأسرة ومستقبلها.

جابر

ثم أبدى د. جابر ملاحظاته على الكتاب والكاتب، فاعتبر أن الدكتور سنو يكتب في الحرب اللبنانية وهو يخاف أن تضيع في لبنان الدولة والاستقلال والسلام والأمان الاجتماعيين. ومن انكسار مشروع تنصيب سلطة الدولة. ويخاف من أن تغدو هذه السلطة هامشاً وحيزاً ضيقاً لتميرير أوقات ضائعة ما بين استحقاق واستحقاق، ما بين مرحلة ومرحلة ويخاف من قعود الشرعية أو إقعادها. تدور مواضيع الكتاب ضمن مروحة واسعة تمتد على تحولات البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادارية، في مستوياتها: الفوقي، من رجالات وقادة وفعاليات ومؤسسات، والتحتي، بما يعنيه من مجموع عامة ومواطنين وعلاقات يومية... ويكفي القول فيه: بأن له مفعول العمل التأسيسي وبأنه يجعل من الحرب اللبنانية، موضوع معرفة علمية، إذ يبدو، خلو الأدبيات التاريخية حول حرب لبنان، من جهد موضوعي وعليه، فالنقد والقارئ الأساسي هنا هو المؤرخ نفسه. وقال د. سنو إن كتابه يشكل أساساً صالحاً لتأريخ مرحلة أليمة من تاريخ الوطن والشعب. وأشار الى أن المجلد الأول يتناول الجانب السياسي والعوامل التي أدت الى اندلاع الحرب. أما المجلد الثاني، فيدرس التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية ونشوء اللامركزية الاقتصادية والادارية والاعلامية. وعدّد الدكتور سنو النتائج التي توصل اليها الكتاب:

- ١- القيادات التقليدية المارونية والاسلامية نعت، بعيد انطلاق الحرب، صيغة الميثاق الوطني.
- ٢- حرب لبنان تفجرت حول دور لبنان في الصراع العربي الاسرائيلي والوجود العسكري الفلسطيني.
- ٣- تحكّم الفلسطينيين بنصف لبنان حتى عام ١٩٨٢ وتقاسم سوريا واسرائيل ما تبقى من نصفه الآخر، وتحول لبنان الى ساحة للصراعات الخارجية.

٤- تعاضم نفوذ الميليشيات وما حقته من نهب منظم وهيمنة سياسية ساهما في عدم العمل الى خلق الدولة العادلة.

٥- التقاتل في وسط بيروت أسهم في نشوء لامركزية تجارية واقتصادية وفي هجرة رأس المال اللبناني والمؤسسات المالية والمصارف.

٦- عدم تحوّل المجتمع الى قوة سياسية ضاغطة تعمل على إنهاء الحرب بسبب تعاضم قوة الميليشيات التي لم تترك له هامشاً سوى للعمل الاجتماعي والانساني.
٧- توافق اللبنانيين على تسوية الطائف ما كان بفعل ارادتهم الذاتية بقدر ما كان وليد ارادة عربية ودولية لإغلاق الملف اللبناني.

وتساءل سنو أخيراً كيف يمكن جعل أبناء الطوائف الدينية ينظرون الى أنفسهم على انهم لبنانيون أولاً، ويرون لبنان الوطن في هويتهم ومصالحهم.

تكريم من بلدية بيروت

ثم تكلم ممثل بلدية بيروت المحامي رشيد الجلخ، فأشار الى أن بيروت عاصمة الكتاب للعام ٢٠٠٩ تنهيب المناسبة الغالية وتتطلع الى تظاهرات ثقافية وفنية على أنواعها. وأعلن أن الأمانة العامة لهذا الحدث المشرف، تتلقى المشاريع والمراجعات والاقتراحات من المثقفين والمهتمين بكل فخر واعتزاز. وشكر الجلخ النادي اللبناني للكتاب على مبادرته الرائدة ووضعه الندوة برعاية بلدية بيروت، العاصمة التي عاشت الحبر والدم معاً، فاستحقت أن تكون عاصمة عالمية للكتاب، وذلك نتيجة ايمان المثقفين وحرصهم على ثقافة لبنان وحضارته المميزة. ثم قدم الجلخ درعاً تقديرية باسم بلدية بيروت لكل من المنسق العام الأب مارون عطالله والمدير العام الاعلامي ميشال معيكي.

النادي اللبناني للكتاب يضع مجلد "حرب لبنان وتفكك الدولة"
على مشرحة المثقفين وأهل القلم

المستقبل - السبت 31 كانون الثاني 2009 - العدد 3206 -

في إطار احتفالية بيروت عاصمة عالمية للكتاب للعام 2009 وتحت رعاية مجلس بلدية بيروت، أحيا النادي اللبناني للكتاب المنتدى الشهري الثالث في أوديتوريوم دير الآباء اللعازاريين - الأشرافية حيث جرت مناقشة مجلد "حرب لبنان 1975 - 1990 تفكك الدولة وتصعد المجتمع"، لمؤلفه الدكتور عبدالرؤوف سئو. وتألقت عمدة المناقشة من الدكتور زهير حطب، قارئ أول والدكتور منذر جابر، قارئ ثان بإدارة الإعلامي ميشال معيكي وحضور المؤلف تحوطه وجوه سياسية ثقافية وتربوية ومهتمون، يتقدمهم النائب غسان مخيبر وعضو مجلس بلدية بيروت المحامي رشيد الجلخ وأمين عام النادي اللبناني للكتاب الأب مارون عطالله.

بداية النشيد الوطني اللبناني، ثم كلمة مدير الندوة الإعلامي معيكي الذي اعتبر كتاب "حرب لبنان" إنجازاً غنياً حافلاً بالمعطيات والوقائع والأرقام الإحصائية والخطوط البيانية، ما يجعل العمل علمياً ويؤسّم بالحياد العقلاني في مقارنة موضوع شائك وحساس.

مداخلة د. زهير حطب

في تعريفه كتاب "حرب لبنان 1975 - 1990" ركّز د. زهير حطب على الفصول الثمانية الواردة في المجلد الثاني الذي يحمل عنوان "التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية والمعرفية". وقد وجد في كل فصل بحثاً ينتمي الى حقل معرفي وعلم مختلف واستخدم المؤلف في مقارنته لمواضيع بحثه المنهج والتقنيات الخاصة بتطبيق العلم نفسه، وقد تنوّعت بين: الاقتصاد والتربية والتعليم وعلم السكان والهجرة وتكيف السكان مع الأوضاع الأمنية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة. وأوضح التحولات العميقة التي لحقت بالأسرة اللبنانية كخلفية اجتماعية تنجب المواليد وتنشئهم لتؤمن للمجتمع فرص استمراره وتطوره. وأشار د. حطب الى أن الكتاب، ولا سيما المجلد الثاني منه، يخرج فيه المؤلف عن دور المؤرخ لتتبع الأحداث والوقائع الى تبني أطر مفاهيمية تفسر تحرك المجتمع تحت تأثير العوامل السياسية والاقتصادية والأمنية معاً، بعد أن كانت القناعات، حتى وقت قريب، تؤكد على حتمية تأثير العامل الاقتصادي وحده على مسار تطور الأسرة ومستقبلها.

مداخلة د. منذر جابر

ثم أبدى د. جابر ملاحظاته على الكتاب والكاتب، فاعتبر أن الدكتور سئو يكتب في الحرب اللبنانية وهو يخاف أن تضع في لبنان الدولة والاستقلال والسلم والأمان الاجتماعيين. ومن انكسار مشروع تنصيب سلطة الدولة. ويخاف من أن تغدو هذه السلطة هامشاً وحيزاً ضيقاً لتمرير أوقات ضائعة ما بين استحقاق واستحقاق، ما بين مرحلة ومرحلة. ويخاف من قعود الشرعية أو إقعادها.

مداخلة د. عبدالرؤوف سئو

وقال د. سئو أن كتابه يشكل أساساً صالحاً لتاريخ مرحلة أليمة من تاريخ الوطن والشعب. وأشار الى أن المجلد الأول يتناول الجانب السياسي والعوامل التي أدت الى اندلاع الحرب. أما المجلد الثاني، فيدرس التحولات في البنى الاقتصادية والاجتماعية ونشوء اللامركزية الاقتصادية والإدارية والإعلامية. وعدّد الدكتور سئو النتائج التي توصل إليها الكتاب:

- 1 - القيادات التقليدية المارونية والإسلامية نعت، بعيد اندلاع الحرب، صيغة الميثاق الوطني.
- 2 - حرب لبنان تفجّرت حول دور لبنان في الصراع العربي الإسرائيلي والوجود العسكري الفلسطيني.

- 3 - تحكّم الفلسطينيين بنصف لبنان حتى عام 1982 وتقاسم سوريا وإسرائيل ما تبقى من نصفه الآخر، وتحوّل لبنان الى ساحة للصراعات الخارجية.
 - 4 - تعاضم نفوذ الميليشيات وما تحقّقه من نهب منظم وهيمنة سياسية ساهما في عدم العمل لخلق الدولة العادلة.
 - 5 - التقاتل في وسط بيروت أسهم في نشوء لا مركزية تجارية واقتصادية وفي هجرة رأس المال اللبناني والمؤسسات المالية والمصارف.
 - 6 - عدم تحول المجتمع الى قوة سياسية ضاغطة تعمل لإنهاء الحرب بسبب تعاضم قوة الميليشيات التي لم تترك له هامشاً سوى للعمل الاجتماعي والإنساني.
 - 7 - توافق اللبنانيين على تسوية الطائف ما كان بفعل إرادتهم الذاتية بقدر ما كان وليد إرادة عربية ودولية لإغلاق الملف اللبناني.
- وتساءل أخيراً كيف يمكن جعل أبناء الطوائف الدينية ينظرون الى أنفسهم على أنهم لبنانيون أولاً، ويرون لبنان الوطن في هويتهم ومصالحهم.

تكريم من بلدية بيروت
ثم تكلم ممثل بلدية بيروت المحامي رشيد الجلخ، فأشار الى أن "بيروت عاصمة الكتاب للعام 2009" تنهّب المناسبة الغالية وتنتقل الى تظاهرات ثقافية وفنية على أنواعها. وأعلن أن الأمانة العامة لهذا الحدث المشرف، تتلقّى المشاريع والمراجعات والاقتراحات من المثقفين والمهتمين بكل فخر واعتزاز.
يذكر أن المنتدى الرابع من الأماسي الشهرية سيكون في مدينة جونيه وسيناقش كتاب "جمهورية فؤاد شهاب"، للصحافي نقولا ناصيف.

السبت، شباط 7 2009 الموافق 12 صفر 1430

بعد صدور كتابه <حرب لبنان 1975-1990> د. عبد الرؤوف سنو في حوار مع
<اللقاء الثقافي>:
- الميليشيات فككت الدولة، وصدّعت مجتمعتها، وأوجدت اقتصادها الموازي
لبنان كان ضحية الجغرافية السياسية



د. عبد الرؤوف سنو خلال الحوار مع الزميل
الياس العطروني

منذ صدور كتاب د. عبد الرؤوف سنو
<حرب لبنان 1975-1990: تفكك الدولة
وتصدّع المجتمع> في أواخر الصيف
المنصرم عن الدار العربية للعلوم ناشرون،
وهو عبارة عن جزأين في 1808 من
الصفحات، لا تزال ردود الفعل على هذا
العمل الموسوعي تتوالى في الصحف
والندوات الأكاديمية.

فالكتاب يتناول معظم أوجه تلك الحرب، من سياسية وعسكرية واجتماعية وثقافية ومعرفية،
ويتم رصدها ببحث وتحليل معمقين عبر استخدام مناهج بحثية اجتماعية وإقتصادية وإحصائية
وتاريخية متعددة، وتخصيص عشرات الجداول والمؤشرات التي تلقي الضوء على مختلف
جوانب التطور في المسألة اللبنانية، ومقارنته بمراحل أخرى. والكتاب باختصار، عمل
أكاديمي رفيع المستوى منهجاً ومضموناً، وهو يضع إصبعه على جرح لا يزال ينزف منذ
أكثر من ثلاثين عاماً، من دون أن يجد اللبنانيون حلاً لمعضلتهم المزمنة، وهو نظامهم الطائفي
السياسي الذي هو عامل خطير يضعف التماسك المجتمعي ويجعل من لبنان جرّاء ذلك ساحة
لمشاريع الخارج وتنافسائه.

<اللقاء الثقافي> استضاف العميد السابق لكلية التربية والمؤرخ الدكتور عبد الرؤوف سنو
وناقشته في كتابه الجديد، لتعريف القراء بجوانب مهمة من عمله الموسوعي المعمق.

وهنا مجريات الحوار:

د. سنو: لمن هذا الكتاب الضخم من مجلدين وعشرات الجداول والإحصاءات والمؤشرات،

أين تكمن اهتمامات القارئ العادي والباحث المتخصص؟

- الكتاب ضخم جداً بالفعل. والسبب يعود إلى أنني أردت أن أجمع فيه معظم جوانب الحرب في سفر واحد، بدلاً من لجوء القارئ والمتخصص إلى عشرات الأبحاث المتفرقة هنا وهناك، وأن أطل على جوانب لا تزال مجهولة بالنسبة إلى البحث العلمي. والكتاب في رأيي، مهم جداً للقارئ العادي وللباحث، فهو يجمع ما بين الأمن والسياسة والاقتصاد والمجتمع والثقافة والمعرفة. فالقارئ العادي الذي عاش زمن الحرب وهزته وأكتوى بنارها، تعرض إما للقتل بواسطة القنّاص والسيارة المفخخة والقذيفة العشوائية، أو إلى الخطف والتهجير، أو الإذلال في لقمة عيشه، واضطر إلى التكيف مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية على مدى سنوات الحرب، وفوق كل شيء حماية نفسه وعائلته، إما بالاختباء في الملجأ أو على سلم المبنى، أو الابتعاد إلى المناطق الداخلية في الحيز الجغرافي - الطائفي، أو حتى في النزوح والهجرة، هذا القارئ يهمله أن يسترجع تفاصيل ما عاشه وتعايش معه. فلا تزال الأحداث تلك تختزن في ذاكرته. وكذلك الطفل والشاب والفتاة الذين ولدوا خلال الحرب، سيكون لديهم شغف لمعرفة الأسباب التي جعلت آباءهم وأجدادهم يتوجهون إلى الحرب عام 1975، بدلاً من الاحتكام إلى صوت العقل. وإنني أعتقد أن استيعاب المواطن العادي، أكان شيخاً أم رجلاً وإمرأة أم شاباً، هذه الأحداث وآلامها، تجعله أكثر تحصيلاً تجاه الانخراط في زوارب حروب أخرى. أما الباحث والأكاديمي، فهو الذي يرصد تلك الأحداث ويدرسها ويحلل مسبباتها وتطوراتها وتداعياتها ويقدمها في عمل علمي إلى نخبة من رجال الاختصاص أو المثقفين أو المهتمين. فلا يمكن أن يمر لبنان في مرحلة تاريخية مهمة كهذه من حياته، من دون أن تُسجل وتُكتب وتقوم. فأني عمل أكاديمي يتناول تاريخ لبنان المعاصر، لا بد من أن يتناول تلك الحقبة بسلبياتها وإيجابياتها ويدرسها من جوانب علمية مختلفة. ويُفترض أن يكون البحث هادفاً وموضوعياً وغير منحاز، ويقدم العبر من تلك التجربة الأليمة وي طرحها أمام الباحثين لمعرفة مواطن الأزمة والوهن في تعايش اللبنانيين، وأين أخطأوا وأين أصابوا، والاستنتاج إلى أن الحوار وليس البندقية هو الذي يؤدي إلى حلول لمشكلات بلدهم.

د. سنوّ: ذكرت في الكتاب أن غياب الوعي الاستراتيجي في الجغرافيا السياسية هو الذي جعل الطوائف اللبنانية تتطلع خلال الحرب إلى الخارج للاستقواء به على غيرها من الطوائف. ما المقصود بغياب الوعي الاستراتيجي بالجغرافيا السياسية؟

- في رأيي، أن لبنان <دولة حاجز> تقع بين إسرائيل وسورية، فصراع الدولتين وتوافقهما يؤثران فيه وفي طوائفه. وقد رأينا أن لبنان ظل بعيداً عن التأثير المباشر للصراع العربي - الإسرائيلي حتى عام 1967، الذي شهد هزيمة الدول العربية على يد إسرائيل. فأصبح بعد ذلك التاريخ في دائرة التجاذب بين سورية التي خسرت الجولان، وبين إسرائيل، ورافق ذلك النشاط الفدائي الفلسطيني ضد إسرائيل من الأراضي اللبنانية. وفي دولة مثل سويسرا، يكون الشعب في الداخل متماسكاً لمواجهة التحديات الخارجية، أما في لبنان، فقد حدث العكس، إذ لم يدرك اللبنانيون أن انقسامهم طائفيًا وسياسيًا من جهة، ومخاطر الاستقواء بسورية وإسرائيل أو بالفلسطينيين من جهة أخرى، أوقعهم في دائرة جيو سياسية أكبر منهم تسحق الضعيف لتحقيق مصالحها. من هنا، تجاهل اللبنانيون أو لم يعرفوا أن الاستقواء بالخارج سيجر الولايات عليهم، في وقت عمد الفلسطينيون فيه إلى تحقيق مشاريعهم الخاصة في لبنان، بينما تقاسمت سورية وإسرائيل النفوذ فيه وفق ما عُرف باتفاق الخطوط الحمراء. والدليل على أن لبنان كان ضحية

الجغرافية السياسية وملهاة كل من سورية وإسرئيل، هو اتفاق 17 أيار 1983 الذي شطر اللبناني وأفشلته سورية، وكذلك الاتفاق الثلاثي أواخر عام 1985، الذي شطر بدوره اللبنانيين وأفشلته إسرائيل والولايات المتحدة.

د. سنو: هناك دول عديدة تدخلت في الأزمة اللبنانية غير سورية وإسرائيل أو الفلسطينيين، فما هو دورها، ولماذا عجزت عن إيجاد حل مبكر للقضية اللبنانية؟

- منذ اليوم الأول لاندلاع الحرب، دخلت دول عربية وأجنبية عدّة على خط المصالحة وحلّ الأزمة اللبنانية. فكانت سورية سبّاقة في طرح تصوراتها لحلّ الأزمة، وفق رؤية تجعل منها الدولة الأكثر تفضيلاً وتأثيراً في لبنان. وهذا ما ظهر بوضوح خلال سنوات الحرب، عبر التدخل السياسي المباشر وإرسال جيشها إلى لبنان في صيف عام 1976، أو تقديم مبادراتها. كان السوريون يريدون أن يمسكوا بمنظمة التحرير الفلسطينية بعد خروجها من الأردن، وبالملف اللبناني وجعل لبنان مجرد محمية تابعة لنظامهم. ولهذا السبب، عرقلت سورية بنجاح أية مبادرة لحلّ الأزمة اللبنانية لا تأخذ في الاعتبار مصالحها في لبنان، أو أن تضيي الشرعية على وجود قواتها فيه. فالمبادرات العربية كان عليها أن تمر عبر دمشق، وكذلك الفرنسية والفاتيكانية، وإذا حدث العكس، فنصيبها الفشل. وحتى بعد اجلائها عن بيروت عام 1982، ظلت سورية لديها قوة الممانعة للسياستين الأميركية والإسرائيلية الهادفتين إلى ضم لبنان إلى محور السلام الإسرائيلي - المصري. وفي اتفاق الطائف، وجدنا أن سورية قاومت، وبدعم أميركي، فكرة إعادة بناء الدولة اللبنانية بعيداً عن نفوذها. فاتفاق الطائف الذي تحقق عام 1989، لم يكن بالإمكان التوصل إليه لولا الموافقة السورية عليه. وبالتالي، فقد سلّم هذا الاتفاق لبنان عملياً إلى سورية، عندما انشغلت الدول العربية بتداعيات احتلال العراق للكويت في آب 1990.

وعلى رأس الدول العربية التي سعت بقوة لحلّ الأزمة اللبنانية، المملكة العربية السعودية في عهد المغفور لهما الملك خالد والملك فهد. فكلاهما أدركا مخاطر انعكاس الأزمة اللبنانية على المنطقة العربية وجنوح فريق من اللبنانيين إلى التقسيم. فكان للمملكة ثوابتها تجاه لبنان التي لم تتغير، وهي المحافظة على وحدة لبنان أرضاً وشعباً وسيادة، ورفض تدويل الأزمة اللبنانية والإصرار على تعريبها. أما دبلوماسيتها على الساحة اللبنانية، فمرت بثلاث مراحل: قبل عام 1982، عندما انصب همّها على دعم الشرعية اللبنانية ومنع تقسيم لبنان، ودبلوماسية ما بعد الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، فكانت وراء حوار اللبنانيين في جنيف ولوزان عامي 1983 و1984، ودبلوماسية اتفاق الطائف الذي أنهى الحرب. وقد تأخر الحلّ السعودي للأزمة اللبنانية بسبب أحداثه الداخلية بين عامي 1988 و1989، ورفض سورية أية تسوية لا تعترف بنفوذها ومصالحها في لبنان.

د. سنو: لقد تحدّثنا كثيراً عن السياسة، وأود أن أطرح سؤالاً يتعلق بالمجلد الثاني للكتاب حول الاقتصاد اللبناني خلال الحرب، لقد قيل أنه صمد في وجه الأزمات، وقيل أيضاً أنه تعرض للتباطؤ والركود، وأنه انهيار لقيام اقتصاد ميليشياوي على انقاض الاقتصاد اللبناني، فأَي منهم هو الصحيح؟

- ليس صحيحاً أن الاقتصاد اللبناني قد انهيار، والصحيح أنه تباطأ بسبب عوالم الأزمة

السياسية والاقتصادية والمالية. فالحروب وعدم الاستقرار السياسي وانقطاع التواصل بين أنحاء البلاد هو أكبر عدو للاقتصاد المزدهر وللقطاعات الانتاجية والخدماتية والاستثمار. ويؤدي تباطؤ الاقتصاد إلى تراجع الناتج المحلي. وبشكل عام، فالمرحلة بعد الاجتياح الإسرائيلي الثاني للبنان عام 1982 هي بداية تباطؤ الاقتصاد اللبناني وتدهور سعر صرف الليرة اللبنانية، ونمو معدلات التضخم وارتفاع الأسعار بشكل خطير، وكذلك حجم الدين العام والانفاق على قطاعات غير منتجة، وتدني القيمة الفعلية للأجور، وحدوث نزوح لرؤوس الأموال. كما تراجعت إيرادات الدولة بشكل خطير من مرافقها (مرافئ وجمارك وضرائب)، وحدث عجز كبير في الموازنة العامة وفي ميزان المدفوعات، وانكسرت الزراعة والصناعة باستثناء فترة قصيرة بين عام 1985 و1987.

في المقابل، نما الاقتصاد الميليشياوي، نتيجة الهيمنة على مرافق الدولة ومرافقها ومنشأتها، وبالتالي الاستحواذ على ماليتها، والاتجار بالممنوعات والمخدرات والأسلحة والسوق السوداء، فضلاً عن المصادرات. من هنا، نفهم لماذا عارضت الميليشيات جميعها اتفاق الطائف، لأنه كان يحرّمها من عائدات مالية ضخمة. لقد قمت في الصفحة 1490 من المجلد الثاني بتقدير ما حققته الميليشيات من مكاسب خلال الحرب جرّاء كل أنواع السرقات والنهب والاستحواذ والمتاجرة بالسلع الممنوعة وبالأسلحة والمخدرات، فبلغت ما بين 41 ملياراً و52 مليار دولار.

ماذا حلّ بالثقافة والتعليم خلال الحرب؟

- الحروب تنتج في العادة ثقافات وقيمها. ومن الطبيعي في ظل ضعف الدولة اللبنانية والفلتان الأمني والسياسي والتصارع الطائفي أن تتأثر الثقافة والقيم، وتصبح صفة <نورن> عن حق ملازمة للتعليم في لبنان، لأن الميليشيات روّجت ثقافتها وقيمها القائمة على رفض <الأخر> وترويعه و<التشبيح> والاستحواذ على مالية الدولة وعلى مرافقها وعلى ممتلكات المواطنين، وممارسة القتل والخطف والقهر والإرهاب والهيمنة على الإدارات الرسمية هنا وهناك، ودعم موظفين مرتشين غير أكفاء. وفي ضوء ذلك، أنهار التعليم، ويمكن ملاحظة ذلك، ليس من خلال الخسائر البشرية التي تعرض لها القطاع في الحجر فحسب، بل في البشر، كالتعطيل القسري وعدم تنفيذ البرامج الدراسية، وتراجع مستوى الكثيرين من المعلمين والأساتذة في المرحلتين الجامعية وما قبلها، فضلاً عن عجز الدولة عن إجراء الامتحانات الرسمية في بعض السنوات بسبب المعارك والأمن، وظهور بدعة <إفادة الترشيح> للدخول إلى الجامعة اللبنانية. فترجع مستوى هذا الصرح العلمي، عندما مارست الميليشيات سيطرتها عليها ودخلها أساتذة غير أكفاء. وأكثر من ذلك، فإن تفريع الجامعة اللبنانية وتدخل الميليشيات في شؤونها وإدخال أساتذة غير مؤهلين إلى الجسم التعليمي فيه، أدى إلى إفراغ الجامعة من مضمون رسالتها، ففقدت طابعها الوطني.

لقد تحدّثت عن كل سينات الميليشيات. لكن هناك سؤال يطرح نفسه: أين كان المجتمع المدني. فنحن نعلم أن المجتمع المدني كان ناشطاً عشية الحرب، فلماذا لم يتصدّ للميليشيات؟

- ما تقوله عن المجتمع المدني عشية اندلاع الحرب صحيح. ففي هذه المرحلة، نهض المجتمع عبر مؤسساته وهيئاته وراء قضايا مطلّبية، كالنقابات العمالية والتحرّكات الطلابية وفق مصالح

مشتركة جمعت بينهم، وليس استناداً إلى إعتبارات طائفية. وما أن دخل لبنان في نفق الحرب، حتى تحول العمال والطلاب إلى وقود لها. فبدلاً من أن يستمر العمال والطلاب في مطالبهم الوطنية، أضحوا أدوات صراع طائفي يتقاتلون في متاريس متقابلة. وهذا ما منع خلال الحرب أي دور للمجتمع المدني، فاقصر دوره على تقديم الإغاثة والمساعدة للمتضررين. فظهر نتيجة ذلك العديد من الهيئات والجمعيات الأهلية تهتم بالعمل الاجتماعي والإنساني. أما سياسياً، فلم تترك الميليشيات للمجتمع المدني هامشاً للتحرك. فعندما قررت هيئات المجتمع المدني من كل الطوائف التظاهر في 6 أيار 1984 أمام المتحف تحت شعار <لا للسنة العاشرة للحرب>، قامت الميليشيات في المنطقتين الشرقية والغربية عشية التحرك بقصف منطقة المتحف، وعطلت بذلك التظاهرة. وهذا التحرك، لم يكن نوعاً من الثورة أو الانتفاضة، وإنما تمرداً على ما آلت إليه حالة البلاد في <عصر الميليشيات>.

إن هناك أسباباً عديدة حالت دون تحوّل المجتمع المدني إلى قوة تغييرية، وهو الخطاب الميليشياوي المضلل حول الرغبة في الإصلاح والدفاع عن الشعب، وكذلك كثرة المبادرات المحلية والعربية والدولية لحلّ الأزمة اللبنانية، فأسهمت هذه، إلى حد كبير، في جعل المواطن يعتقد أن هذه الجهود كفيلة بإخراج البلاد من محنتها. وعندما لم يتحقق ذلك، أصيب المواطن بالإحباط، وبدأ يتحدث عن مؤامرة قدرية لا فكاك منها، ما قوى عنده شعور اليأس والخنوع، فدفعه إلى الهجرة. يُضاف إلى ذلك، أن الفرز الطائفي والتموضع السياسي جعل جمعيات المجتمع المدني وهيئاته الشعبية الراضية للحرب، ومنها <الاتحاد العمالي العام> عاجزة عن التعالي على نظام الحرب والخروج عن إرادة قادة الميليشيات وأمراء الحرب والمصالح الطائفية. أخيراً، لم تتمكن القوى الراضية للحرب من أن تصوغ مشروع سلام متكامل، وجلّ ما كانت تريده هو وقف الحرب والعنف.

سؤال أخير: ماذا تريد د- سنو أن تقول للبنانيين حول عبر الحرب؟

- أريد أن أقول لهم أن عليهم نبذ نظامهم الطائفي واعتماد نظام جديد يقوم على المواطنة، لأن ديمقراطية لبنان التوافقية لم تنقل لبنان إلى حالة الوطن ولم توحد بين اللبنانيين. وعلى المجتمع اللبناني أن يطرد القوى السياسية الحالية التي تقاتلت في السابق وتقاتل اليوم في سبيل مصالحها الخاصة. وأن يخلق قوة سياسية وحزبية جديدة تتنافس على مصلحة الوطن. لكن يبقى التحدي الكبير الذي واجهه اللبنانيون في الماضي ولا يزالون يواجهونه اليوم وفي المستقبل، هو في كيفية إقامة بناء وطني عبر إلغاء نظام طائفي سياسي اجتماعي من دون تهميش الطوائف المسيحية وإثارة مخاوفها، وفي كيفية جعل الحكم يخضع للأكثرية من دون تسلط المسلمين عليه؟

حاوره: إلياس العطروني تصوير: جمال الشمعة



ديموقراطية لبنان
التوافقية لم تنقله إلى
حالة الوطن

النضار

23636 العدد - 76 السنة - 2009 آذار 12 الخميس

"الطائفية ولغة الحوار" في جمعية "نحن"

بعد تنظيمها مجموعة ورش عمل تحت عنوان "الطائفية ولغة الحوار"، أقامت جمعية "نحن" في فندق الكراون بلازا، ندوة جديدة في السلسلة تضمنت محورين، "الطائفية والتشكيلات الاجتماعية" و"الطائفية السياسية".

افتتح مدير الجمعية محمد ايوب الندوة بشكر الوكالة الاميركية للتنمية الدولية لدعمها المشروع، واعتبر ان هذه النشاطات لا لون ولا دين لها، بل هي عمل للشباب الذين "وجدت ادمغتهم الضوء الابيض بانسجام متين ومثبت، فوجدوا ان اختلافهم يجب ان يؤدي الى البحث والحوار لا الى النزاع والعنف".

وبدأ الدكتور في علم الاجتماع زهير حطب محاضراته بالكلام عن "الطائفية والاسرة" وشرح كيف تلغي الطائفة وزعمائها دور الاهل في عملية تربية، وتلغي العلاقة العاطفية الاختبارية بين الاهل والابناء في الاسرة الحديثة. فالطائفة "ادّعت معرفة خير جماعاتها، وانها خبيرة وقادرة على تأمين كل متطلبات الابناء وحماية الاسرة"، فأصبح دور الاسرة ثانوياً، ينضوي تحت جناح الطائفة وزعيمها.

اما الدكتور في علم الاجتماع سعود المولى فتساءل اذا كان "هناك احد في لبنان لا يريد الغاء الطائفية؟"، وتكلم عن مفهوم المجتمع المدني كأداة تطبيقية قابلة للتنفيذ، لا تقتصر على التحليل

والشعارات، كما تطرق الى "السياسة المدنية" الموجودة في الاسلام والفلاسفة الذين اشاروا اليها في كتبهم الفلسفية، كابن سينا، وأشار الى ان "الاساس في فهم الطوائف هو العصبية، والغاية التي تسعى اليها العصبية هي المُلْك"، كما قال ابن خلدون. واختتمت الندوة الاولى المحللة النفسية الدكتورة انيسة الامين في مداخلة بعنوان "طوائفية الشباب: حروب مفتوحة"، طرحت فيها اسئلة تشغل اهتمامات الشباب. وبدأ المحور الثاني بكلمة للاستاذ في الحضارات والعلوم الانسانية نديم محسن الذي تحدث عن "دولة الطوائف بين صولة المؤسسات وجولة الميليشيات"، مصنفاً لبنان "دولة طوائف"، لا "دولة طائفية"، شارحاً الفارق بينهما معرفاً دولة الطوائف اللبنانية بأنها "اما مجمل الميليشيات الحكومية اللبنانية، اما لبنان ذاته بما هو من مجهز بميليشيات "فلمؤسسات والميليشيات" دور واحد احد في بناء دولة الطوائف وبقائها".

اما الدكتور في التاريخ عبد الرؤوف سنو فتناول دور العوامل الخارجية في ازمة لبنان ماضياً وحاضراً، وبعكس ما قاله محسن اعتبر ان الطائفية حديثة الوجود في لبنان وعمرها لا يتخطى الـ 150 عاماً، وركز على العوامل التي زادت ازمة لبنان منذ 30 عاماً حتى الخروج السوري من لبنان، مروراً بالصراع العربي الاسرائيلي، والاتفاقيين الثلاثيين، الاسرائيلي العام 1983 والسوري العام 1985، ووجد سنو ان "اتفاق الطائف وحرب الخليج الثانية، كرسا الهيمنة السورية على لبنان، لكن تحرير الجنوب واحداث 11 ايلول 2001 ارخت بتداعياتها على لبنان".

واختتمت سلسلة المحاضرات في نقاش بين المحاضرين والشباب